مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

"فِي التَّسْلِيمِ النَّبَوِيِّ"

إِسْتِرَاتِيجِيَّةُ الْإِقْنَاعِ بِالتَّبْلِيغِ الْإِلَهِيِّ بَيْنَ المَنْطِقِ الْعَقْلِيِّ وَالتَّأْثِيرِ العَاطِفِيِّ خُطْبَةُ الْغَدِيرِ لِلرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ أُنْمُوْذَجًا – دراسة دلاليّة –

رجاء محمّد حسين بيطار [1]

١ الجامعة اللبنانيَّة / كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها ,لبنان؛

rajaabitar69@gmail.com

ماجستير في اللغة العربية / أستاذ

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٣/٦/٩	٢٠٢٣/٨/١٠	٢٠٢٣/٩/٣٠

DOI: 10.55568/t.v15i27.21-54

المجلــد (١٥) العــدد (٢٧)
ربيع الأول ١٤٤٥هـ-أيلول٢٠٢٣م

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

انطلاقًا من عنوان البحث الموسوم "إستراتيجيَّة الإقناع بالتبليغ الإلهيّ بين المنطق العقليّ والتأثير العاطفيّ- خطبة الغدير للرسول الأعظم ﷺ أنموذجًا"، فإنَّ موضوع هذا البحث يتمحور حول دراسة إستراتيجيَّة الإقناع التي استخدمها النبيّ الأعظم ﷺ في عملية التبليغ الإلهيّ بنصّ الإمامة في خطبة الغدير، وكيف استطاع النبيّ أن يوفّق بين الأسلوب المنطقيّ المتدرّج من الأسباب إلى النتائج، وبين التأثير الوجدانيّ في قلوب ونفوس جمهور المسلمين المستمعين لخطبته الشريفة، وذلك عن طريق رصد الدلائل اللفظيَّة والمعنويَّة في الخطبة.

يعتمد هذا البحث المنهج الاستدلاليّ، وينقسم على مقدّمةٍ ومبحثين وخاتمة.

تشتمل المقدّمة على عرض موضوع البحث، وذلك بدءًا بتسويغ العنوان وبيان أهميّة الموضوع وأسباب اختياره، مع تسويغٍ موجزٍ لأسباب اختيار المنهج، ثُمَّ عرض إشكاليَّاته، وصولًا إلى نقد المدوّنة، أي خطبة الغدير.

أمَّا المبحثان فيعالجان موضوع البحث تحت عنوانين رئيسين:

المبحث الأوَّل: "التدرّج الفكريّ وإستراتيجيَّة الإقناع في عملية التبليغ بنصّ الغدير"

المبحث الثاني: "دور التأثير العاطفي في إستراتيجيَّة الإقناع بالتبليغ الإلهيّ بنصّ الغدير"

وذلك في إطار الإجابة عن الإشكاليّتين اللتين يعالجهما البحث، وهما:

- كيف يتدرّج الخطاب النبويّ في خطبة الغدير من اللفظ إلى المعنى، في تقديم الحجَّة والبرهان العقليّ على حقّانيّة تنصيب النبيّ ﷺ للإمام عليّ ﷺ خليفةً من بعده؟
- كيف يبرز التدخّل اللفظيّ والمعنويّ للمؤثّرات العاطفيَّة التي يطرحها النبيّ ﷺ في خطبته، وكيف تتمازج مع التدرّج المنطقيّ في إستراتيجيَّة الإقناع بالتبليغ؟

ويخلص البحث إلى خاتمةٍ تجمع خيوط البحث وتعرض نتائجه المتوخّاة.

الكلمات المفتاحيَّة: العقل، العاطفة، خطبة الغدير، الإقناع، التدرّج المنطقيّ، التأثير

Persuasion Strategy of Divine Promulgation between Rational Logic and Emotional Influence Ghadir Sermon of the Great Messenger as an Example : Semantic Study

Raja Muhammed Hussein Bitar [1]

1 Lebanese University / Faculty of Arts and Humanities / Department of Arabic and Literature, Lebanon; rajaabitar69@gmail.com

MA. in Arabic language / professor

Received:	Accepted:	Published:
9/6/2023	10/8/2023	30/9/2023

DOI: 10.55568/t.v15i27.21-54

Volume (**15**) Rabi'a Alawwal 1445 AH
Issue (**27**) September 2023 AD

Abstract:

The pivotal issue in the present research revolves around the study of the strategy of persuasion used by the Great Prophet (PBUH) in the process of divine communication of the text of the Imamate in Al-Ghadeer Sermon, and how the Prophet was able to reconcile the logical method and the emotional impact on the hearts and souls of the Muslim audience listening to his honorable sermon. Thus it monitors the verbal and moral evidence in the sermon.

This research adopts the semantic approach to have an introduction, two sections, and a conclusion. The introduction includes presenting the topic of the research, starting with justifying the title and stating the importance of the topic and the reasons for its selection, with a brief justification for the reasons for choosing the method, and then the problems are shown

As for the two sections, they deal with "Intellectual progression and the strategy of persuasion in the process of communicating the text of Al-Ghadir" and "The role of emotional influence in the strategy of persuasion by divine communication in Al- Ghadir text"· These two sections are meant to answer the main research problems. Finally the research ends with a conclusion that collects the research results.

Keywords: reason, emotion, Ghadir, Sermon, persuasion, logical, progression, influence

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيِّد الخلق وأشرف المرسلين أبي القاسم المصطفى الأمين وعلى آله الطاهرين المنتجبين

تمهيد:

قال الله تعالى مخاطبًا نبيّه الكريم:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل ١٢٥]

تختصر الآية الكريمة المذكورة أسلوب التبليغ الإلهيّ الذي أمر الله عزَّ وجلَّ به أنبياءه ورسله، وعلى رأسهم الرسول الأعظم ﷺ، حيث أوحى إليه أن يتّخذ في دعوته للناس أسلوبًا حكيمًا يجمع بين المنطق العقليّ واللّفظ الحسن الطيّب الذي تنشرح له الصدور وتلين القلوب.

وقد جاءت سيرة نبيّ الرحمة والهدى، من مبدئها لمنتهاها، قبل البعثة وبعدها، لتكون جذورًا وأسسًا تنطلق منها سبل دعوته الرحيمة، فخصاله الشخصيَّة التي اتّصف بها منذ نعومة أظفاره كانت مصداقًا لصفات الداعي إلى الله بالحقّ، على القاعدة السابقة، حيث عُرف بالأمانة والصدق حتَّى دعاه قومه بـ"الصادق الأمين"، واشتُهر بالحكمة والعدل حتى لجأوا إليه في حلّ معضلاتهم، كمثل الخلاف الذي وقع حول الحجر الأسود قبل البعثة[١] * ،فإنَّ في تلك الحادثة ما يدلّ على سعة صدر النبيّ وحسن تدبيره، ولم تكن إلّا إحدى الحوادث الجمّة التي نقلها لنا التاريخ، والتي عكست ذاك الخُلُق العظيم الذي وصفه به الخالق جلَّ وعلا، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤] ، بالإضافة إلى الحكمة والبيان والرحمة، وغيرها من صفات الكمال الإنسانيّ التي اتّصف بها شخصه العظيم، فكانت آياتٍ فكريَّةً وخُلقيَّةً لا بدَّ منها لأداء رسالةٍ عظيمةٍ كالإسلام، تحمل السعادة لبني البشر، لا في زمان الدعوة فحسب، بل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وصلته تلك الدعوة المباركة، لتخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، باتّباع الصراط المستقيم، والتمسّك بالعروة الوثقى التي لا يضلّ من تمسّك بها أبدًا.

١ الكُليني، أبي جعفر مُحَمَّد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ش)، ص٢١٧/ ج٤.

* عن الإمام جعفر بن محمد الصَّادق ﷺ: " إِنَّ قُرَيْشاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ هَدَمُوا الْبَيْتَ ، فَلَمَّا أَرَادُوا بِنَاءَهُ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَهُ، وَ أُلْقِيَ فِي رُوعِهِمُ الرُّعْبُ، حَتَّى قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَيَأْتِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَطْيَبِ مَالِهِ، وَلَا تَأْتُوا بِمَالٍ اكْتَسَبْتُمُوهُ مِنْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، أَوْ حَرَامٍ، فَفَعَلُوا، فَخُلِّيَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ بِنَائِهِ، فَبَنَوْهُ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، فَتَشَاجَرُوا فِيهِ أَيُّهُمْ يَضَعُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فِي مَوْضِعِهِ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ شَرٌّ، فَحَكَّمُوا أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه و آله)، فَلَمَّا أَتَاهُمْ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ ثُمَّ وَضَعَ الْحَجَرَ فِي وَسَطِهِ، ثُمَّ أَخَذَتِ الْقَبَائِلُ بِجَوَانِبِ الثَّوْبِ فَرَفَعُوهُ ثُمَّ تَنَاوَلَهُ (صلى الله عليه و آله) فَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ، فَخَصَّهُ اللهُ بِه".

انطلاقًا من الآية الكريمة، ومن عنوان هذا البحث، فإنَّ الموضوع المطروح يتمحور حول مهمَّة النبيّ الأعظم ﷺ في تبليغ الرسالة الإلهيَّة، وذلك بالتوفيق بين التدرّج الفكريّ والاستدلال، لإقناع المبلَّغ بطرحه، وبين التأثير العاطفيّ الذي يترافق معه أو يسبقه أو يلحق به، ليواكب ذاك الفكر ويتلاحم معه، للوصول إلى إلقاء الحجَّة على المبلَّغين، وإنجاز أمر التبليغ على أكمل وجه.

ومع أنَّ النبيَّ استعمل هاتين الوسيلتين متلازمتين، الفكر والعاطفة، في تبليغه عامَّةً، إلّا أنَّ هذا البحث يهدف إلى تسليط الضوء عليهما في خطبته يوم الغدير، تلك الخطبة المصيريَّة التي شكّلت منعطفًا تاريخيًّا مهمًّا في حياة العرب والمسلمين، بل في حياة الإنسانيَّة كلّها؛ ذلك أنَّها قامت على تبليغ الأمر الإلهيّ بتنصيب الوصيّ وتحديده بالإمام عليّ ﷺ، وكان تبليغ ذلك الأمر عسيرًا على النبيّ، لعلمه "بقلّة المتّقين وكثرة المنافقين"[٢].

وبما أنَّ البحث يتمحور حول خطبة الغدير، فلا بُدَّ لنا من تعريف الخطبة عمومًا، كفنٍّ أدبيٍّ أثبت وجوده في حياة العرب، وكان له تأثيرٌ كبيرٌ على العديد من المسارات الفكريَّة والسياسيَّة والعقائديَّة في تاريخ العرب والمسلمين؛ وقد "جاء معنى الخُطبة من الفعل خطب، والخُطبة فنّ أدبيّ نثريّ يخاطب به المتكلّم فئة من الناس لإقناعهم بأمر ما بكلام فصيح، وهي فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته بتوضيح الآراء وعرض الأفكار وتدعيمها بالأدلَّة والبراهين والشواهد وإثارة عواطف السامعين"[٣]، ولعلَّ النبيّ ﷺ في خطبة الغدير كان خير نموذجٍ على هذا التعريف، وسيكون لنا في دراسة هذه الخطبة حسب موضوع هذا البحث ومنهجيَّته مصداقًا لكلِّ ما سلف.

يتألَّف هذا البحث من مقدّمة ومبحثين وخاتمة، تعرض المقدّمة موضوع البحث الموسوم "التبليغ الإلهيّ بين المنطق العقليّ والتأثير العاطفيّ- خطبة الغدير للرسول الأعظم ﷺ أنموذجًا"، وذلك بدءًا بتسويغ عنوان البحث وبيان جدّة الموضوع وأسباب اختياره، مع تسويغٍ موجزٍ لأسباب اختيار المنهج المضمونيّ الدلاليّ الذي يتّبعه البحث، ثُمَّ عرض إشكاليَّات البحث، وصولًا إلى نقد المدوّنة، أي خطبة الغدير، ويتمثّل في عرضٍ موجزٍ لأسانيد

٢ الأنصاري، محمد باقر، خطبة الغدير النصّ الكامل، د.ت. ٣٤.
٣ محمد، إسماعيل علي، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ط٥ (القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، د.ت.) ١٣.

خطبة الغدير التاريخيَّة، توخّيًا لتحقيق مصداقيّتها العلميَّة عند جميع المذاهب الإسلاميَّة، مع تقسيم الخطبة إلى فِقْراتٍ تمكّن الباحث من الإلمام بعناصر البحث بشكلٍ أدقّ. أمّا المبحثان فيعالجان موضوع البحث تحت عنوانين رئيسين: "التدرّج الفكري وإستراتيجيَّة الإقناع في عمليَّة التبليغ بنصّ الغدير"، و"دور التأثير العاطفي في إستراتيجيَّة الإقناع بالتبليغ الإلهيّ بنصّ الغدير"، ويخلص البحث إلى خاتمةٍ تجمع خيوط البحث وتعرض نتائجه المتوخّاة.

المقدّمة:

لقد أسهب الباحثون في الحديث عن خطبة الغدير، وبحثوها من جوانب عديدة، وكان لهم في تلك الساحة صولاتٌ وجولات، بحيث يتراءى لمن يزمع أن يخوض فيها أنَّه قد لا يجد لنفسه مكانًا ولا لبحثه مجالًا، ولكن البحر العميق الزاخر بأصناف الدرّ والجوهر، لا يخيّب غائصًا فيه ولا سابحًا في معانيه، ونظرًا لأهميَّة تلك الخطبة الغرّاء، على المستوى العقائديّ والتاريخيّ، كونها شكّلت مفصلًا أساسًا ومنعطفًا بارزًا في التاريخ الإسلاميّ، وعلى المستوى الأدبيّ واللغويّ، فهي ميدان من أهمِّ ميادين فصاحة النبيّ وبلاغته، المستقاة من بلاغة الوحي الذي هبط على قلبه العظيم، وعلى المستوى المضمونيّ الدلاليّ، الذي تتوسّع معانيه أفقيًّا وعموديًّا لتؤدّي مهمَّة التبليغ الإلهيّ الموكل إلى النبيّ من قبل الله عزَّ وجلَّ، وقد تمَّ اختيارها لتكون محورًا لهذا البحث، فهي خاتمة خطب النبيّ من جهة، وهي موجّهةٌ إلى عموم المسلمين من جهةٍ أخرى، كما أنَّ مكانها وزمانها كانا مختارَين بدقّة، لتكون بلاغًا عامًّا وتبليغًا كاملًا للمسلمين في كلِّ الأقطار التي كان قد دخلها الإسلام آنئذٍ.

أ-تسويغ الموضوع والعنوان: انطلاقًا من عنوان البحث، "التبليغ الإلهيّ بين التدرّج المنطقي والتأثير العاطفيّ"، فإنَّ مقاربة هذه الدراسة لخطبة الغدير ستكون مقاربةً مضمونيّةً دلاليّة، تتمحور حول معاني التبليغ الإلهيّ المنعكس في هذه الخطبة، ورصد الشواهد الدالّة على أدوات هذا التبليغ، بجانبيها الفكريّ والعاطفيّ، وإنَّ في هذه المقاربة ما يقدّم للقارئ والباحث صورةً واضحةً عن أبعاد تبليغ النبيّ ﷺ برسالته السمحاء عمومًا، وبالأمر الإلهيّ بتنصيب وصيّه عليًّا عليه السلام خليفةً من بعده خصوصًا، وكيف يستعمل أسلوب الإقناع

بالتدرّج المنطقيّ، جنبًا إلى جنبٍ مع أساليب الترغيب والترهيب والتعلّق العاطفيّ التي تخاطب وجدان السامع وعواطفه، للوصول إلى عملية تبليغٍ ممنهجة، تفي بالمطلوب في إطار الدعوة إلى الدين الحقّ بكلِّ لوازمه، كما أراد الله عزَّ وجلَّ لعباده.

ب-**أهميَّة البحث**: مع أنَّ الأبحاث استفاضت حول هذه الخطبة الشريفة، إلّا أنَّ هذا البحث يقدّم بمقاربته هذه، جانبًا لعلَّه لم يتمّ التطرّق إليه بهذا الشكل، فيعالج التلازم بين الفكر والعاطفة في عملية التبليغ بنصّ الغدير، بالعودة إلى أدوات كلٍّ منهما والشواهد المناسبة، وذلك انطلاقًا من دراسة مدلولات الألفاظ وصولًا إلى المعاني، بشقّيها العقليّ والعاطفيّ، ممَّا يمكن أن يقدّم للقرّاء والباحثين مادَّةً يرتكزون عليها وينطلقون منها لفهم الأبعاد الدلاليَّة للخطبة، وذلك من جهة توضيح التمازج والتلازم بين منطق الإقناع ودور التأثير الوجدانيّ، في عملية التبليغ النبويّ بالنصِّ الشريف.

ج-**منهج البحث**: يتّبع البحث منهجًا استدلاليًّا في دراسة مضمون الخطبة، فعلم الدلالة هو "العلمُ الذي يدرس المعنى"[٤] ، حيث ينطلق من الألفاظ، فيدرسها من الناحية المعجميَّة، ثُمَّ يلتفت إلى تطوّرها الدلاليّ، والقوانين التي تحكم هذا التطوّر، ثُمَّ يحدّد ما تحتمله من معانٍ في سياقها اللغويّ والاجتماعيّ، ليخلص إلى الأفكار والمضامين، كما أنَّ علم الدلالة يسعى إلى فهم المعاني وبواطنها، فـ"الإشكاليَّة اللغويَّة في هذا العلم هي الوقوع على قوانين المعنى التي تكشف أسراره، وتبين السبل إليه وكيفيَّة حركته، لترقى الدلالة؛ فتؤدِّي وظائف حضاريَّة عالية في الحياة اليوميَّة، وميادين العلوم، وآفاق الفنّ"[٥]... من هنا فإنَّ أدوات هذا المنهج تتوافق مع هذه الدراسة، حيث يتمّ الانطلاق من اللفظ النبويّ لدراسة المعنى التبليغيّ، مع مراعاة ما للّفظ بجانبه اللغويّ والمعجميّ من دلالاتٍ اجتماعيَّةٍ ونفسيَّة عميقةٍ تؤدِّي إلى التفاعل المطلوب بين السامعين (الحجيج الذين وقفوا يستمعون للخطبة وعددهم يناهز السبعين ألفًا على بعض الروايات)[٦] [٧] [٨]، وبين الخطيب (النبيّ ﷺ).

٤ عمر، أحمد مختار. علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٣)، ١١.
٥ الداية، فايز. علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق، ط٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦)، ٦.
٦ الحلبي، علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية، ج٣، د.ت. ٣٠٨.
٧ المقريزي، إمتاع الأسماع، د.ت. ٥١٢.
٨ ابن الجوزي، سبط. تذكرة الخواص، د.ت. ٣٧.

د-إشكاليَّة البحث: يناقش هذا البحث إشكاليّتين رئيستين هما:

- كيف يتدرّج الخطاب النبويّ في خطبة الغدير من اللفظ إلى المعنى، في تقديم الحجَّة والبرهان العقليّ على حقّانيّة تنصيب النبيّ ﷺ للإمام عليّ عليه السلام خليفةً من بعده؟
- كيف يبرز التدخّل اللفظيّ والمعنويّ للمؤثّرات العاطفيَّة التي يطرحها النبيّ ﷺ في خطبته، وكيف تتمازج مع التدرّج المنطقيّ في إستراتيجيَّة الإقناع بالتبليغ؟

هـ-نقد المدوّنة: إنَّ مدوّنة هذا البحث هي "خطبة الغدير"، وهي خطبةٌ طويلة، استغرق النبيّ ﷺ نحو ساعةٍ[٩] في إلقائها على مسامع المسلمين في ذلك اليوم المشهود، الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، وذلك لتبليغ النصّ الإلهيّ بتنصيب الإمام عليّ عليه السلام وصيًّا له وخليفةً.

ولعلَّه من المناسب أن نذكر بعض الأسانيد التي أوردت هذه الخطبة، إذ إنَّ دراستها تستوجب التأكيد على صحَّة سندها قبل البدء، وإنَّ العودة إلى كتب الشيعة الاثني عشرية المعتبرة وكتب العامَّة أيضًا، تؤكّد على أنَّ هذا الحديث متواترٌ حسن السند، بإجماع الفريقين، فهو متواترٌ عند الشيعة، ومذكورٌ في كتب أهل السنَّة على خلافٍ في بعض المواضع، وقد صرّح بتواتره أعلام الشيعة الإماميَّة :

الشيخ الصدوق في معاني الأخبار ص٦٧-٦٨

والشيخ الطوسيّ في الرسائل العشر ص١٣٤

والسيِّد ابن طاووس في إقبال الأعمال ج٢ ص٢٣٩

والعلَّامة المجلسيّ في بحار الأنوار ج٣٧ ص٢٣٦-٢٣٧، وغيرهم، وأمَّا من شهد بصحّته من أهل السنَّة والجماعة فكثيرون من أعلامهم، نذكر منهم:

ابن حجر الهيثميّ في "الصواعق المحرقة" ص ٤٢-٤٤،

وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" ج٤- ص١٣

والحافظ النسائيّ في "الخصائص" ص٣٩-٤٠-٤١

والمحبّ الطبريّ في "ذخائر العقبى" ص٦٧

وابن المغازلي الشافعيّ في "المناقب" ص٢٩- ٣٦

٩ الأنصاري، خطبة الغدير النصّ الكامل ٩، .

والشهرستانيّ في "الملل والنحل" ج١، ص١٦٣

والحاكم في "مستدرك الصحيحين" ج٣ ص١٠٩

وابن حجر العسقلانيّ في "الإصابة" ج٢ ص١٥

وابن خلّكان في "وفيات الأعيان"، ج٤ ص٣١٨-٣١٩

وابن قتيبة في "الإمامة والسياسة" ج١ ص١٠٩، وغيرهم كثير...ومن أراد التفصيل فليطلبه في كتاب "رواة الغدير" للعلَّامة الأمينّي، ونكتفي بهذه الإثباتات على تواتر الحديث وقوَّة سنده، الذي لا يتحمّل الإنكار، أمَّا النصوص التي سيتمّ اعتمادها من هذه الخطبة المباركة، فهي مستلّة من كتاب "خطبة الغدير النصّ الكامل"، لمحمّد باقر الأنصاريّ.

وبما أنَّ المقام يضيق عن إيراد نصّ الخطبة المباركة، لطولها، فسنكتفي بتقسيمها إلى فقرات وعنوانات رئيسة متسلسلة بحسب تدرّج الخطبة نفسها، بحيث يسهل العودة إليها ورصد دلالاتها اللفظيَّة والمعنويَّة المتمحورة حول إشكاليَّة البحث، وذلك على النحو الآتي:

الفقرة الأولى: الحمد والتأمّل في صفات الله ورحمته: تبدأ من (الحمد لله الذي علا في توحده...) وتنتهي عند (إلّا بما دلَّ عزَّ وجلَّ على نفسه).

الفقرة الثانية: الشهادة لله بالقدرة الكاملة وبالعبوديَّة المطلقة له جلّ جلاله: تبدأ من (أشهد أنَّه الله الذي ملأ الدهر قدسه...) وتنتهي عند (ويحمده على كلِّ حال).

الفقرة الثالثة: الحمد والتسليم لله والطاعة لأمره: تبدأ من (أحمده كثيرًا) وتنتهي عند (هو الله الكافي الكريم).

الفقرة الرابعة: التبليغ بالآية الكريمة وظروف نزولها وموقفه التبليغيّ منها: تبدأ من (فأوحى إليّ) وتنتهي عند (والله يعصمك من الناس).

الفقرة الخامسة: مخاطبة الناس ودعوتهم لإطاعة الأمر الإلهيّ: تبدأ من (فاعلموا معاشر الناس) وتنتهي عند (ألا لا تحلّ إمرة المؤمنين لأحدٍ بعدي غيره).

الفقرة السادسة: إعلان ولاية الإمام عليّ عليه السلام والتذكير بأفضليَّته عند الله: تبدأ من (يا أيُّها الناس) وتنتهي عند (الذي رضي بالحقِّ والصبر).

الفقرة السابعة: إشهاد الخالق العظيم (جلّ جلاله)على التبليغ وإعلانه، مع التحذير من مغبَّة الرفض: تبدأ من (معاشر الناس، قد استشهدت الله) وتنتهي عند (من الحبّ والبغض).

الفقرة الثامنة: التأكيد على التلازم بين نبوّته وإمامة الإمام عليّعليه السلام: تبدأ من (معاشر الناس، النور من الله) وتنتهي عند (ولدي من صلبه).

الفقرة التاسعة: التحذير من المنافقين: تبدأ من (معاشر الناس، لا تمنّوا عليّ بإسلامكم) وتنتهي عند (أمر الصحيفة).

الفقرة العاشرة: الإخبار بمستقبل الأمَّة من بعده (اغتصاب الخلافة وإمامة الأئمة): تبدأ من (معاشر الناس، إنِّي أدَعُها إمامة) وتنتهي عند (والله مصدّق وعده).

الفقرة الحادية عشرة: الدعوة لأخذ العبرة من الأمم الماضية، والتشديد على الالتزام بالأمر الإلهيّ في الإمامة: تبدأ من (معاشر الناس، قد ضلَّ قبلكم أكثر الأوَّلين) وتنتهي عند (زخرف القول غرورًا).

الفقرة الثانية عشرة: المقارنة والمقابلة بين أولياء أهل البيت وأعدائهم: تبدأ من (ألا إنَّ أولياءهم) وتنتهي عند (مدحه الله وأحبّه).

الفقرة الثالثة عشرة: الإخبار بالأئمة من صلب الإمام عليّ عليه السلام **والإمام المهديّ** عجل الله فرجه **وصفاته**: تبدأ من (معاشر الناس، ألا وإنِّي أنا النذير) وتنتهي عند (في سرّه وعلانيته).

الفقرة الرابعة عشرة: التأكيد على ضرورة البيعة بالمصافحة بعد الخطبة: تبدأ من (معاشر الناس، إني قد بيّنت لكم) وتنتهي عند (فسيؤتيه أجرًا عظيمًا).

الفقرة الخامسة عشرة: التذكير بالفرائض(الحجّ) وأوامر الله ونواهيه (الحلال والحرام) ودور الإمام عليّ عليه السلام **في إكمال الدين**: تبدأ من (معاشر الناس، إنَّ الحجَّ والعمرة) وتنتهي عند (في الجنان نصيب).

الفقرة السادسة عشرة: الأمر بالإقرار بالبيعة من خلال النصّ: تبدأ من (معاشر الناس، إنَّكم أكثر من أن تصافقوني) وتنتهي عند (ربّ العالمين).

بعد تقسيم الخطبة إلى الفقرات المذكورة بعناوينها، فإنَّ التحليل الدلاليّ سينطلق من هذه العناوين وما يندرج تحتها، وذلك من خلال المبحثين الآتيين:

المبحث الأوَّل:

"التدرّج الفكريّ وإستراتيجيَّة الإقناع في عملية التبليغ بنصّ الغدير":

يطلّ الرسول الأكرم ﷺ على سامعيه من الحجيج، الذين استوقفهم في ذلك المكان المخصوص، غدير خمّ، بخطابٍ فريد، وكما أنَّ الموقف استثنائيٌّ بمكانه وزمانه وجميع أحواله، كذا فإنَّ الخطبة استثنائيةٌ بكلِّ تفاصيلها، ومع أنَّ التبليغ الإلهيّ الذي حمله النبيّ ﷺ على عاتقه منذ عقدين ونيّف كانت له عنده أساليبه المتنوّعة، التي يتآلف فيها الدليل العقليّ مع التأثير الوجدانيّ، وكان ذلك متآلفًا أيضًا مع أسلوب النصِّ القرآنيِّ، إلّا أنَّ هذين العاملين قد برزا بوضوحٍ في هذه الخطبة تحديدًا، وليس ذلك بمستغرب، فهي خطبة الوداع، إذ كان النبيّ ﷺ يعلم بعلم الله تعالى أنَّه لن يقف لغيرها ولا لمثلها ثانية، وهي الخطبة التي سيختتم بها رسالته الإلهيَّة العظيمة المتوجّهة إلى العالمين جميعًا، وذلك بتبليغ الأمر الإلهيّ الأخير، الذي لا تتمّ الرسالة من دونه؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ٦٧)، وهي الخطبة التي ستنقل حشود الحجيج أخبارها إلى أقطارها، في كلِّ مكانٍ بلغه الإسلام آنذاك، كما سيحملها أهل ذاك الزمان إلى الأزمنة اللاحقة، فرسالة الإسلام هي رسالة كلِّ زمانٍ ومكان، وهي التبليغ الرسميّ النهائيّ التامّ الشامل الكامل، من الله عزَّ وجلَّ بإمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ، بعد الآيات العديدة التي نزلت بحقّه سابقًا ونوّهت بتلك الإمامة، وبعد ذكر النبيّ لها في مواطن عديدةٍ سابقة، وفي أحاديث كثيرة متواترة متلاحقة، كحديث المنزلة، وآية التطهير، وآية التصدّق بالخاتم، وغيرها من الآيات التي يذكّر بها النبيّ في هذه الخطبة...

لقد كان من الطبيعيّ أن يكون لهذه الخطبة مقامها الخاصّ والمميّز في حياة النبيّ ﷺ التبليغيَّة، وفي حياة الإسلام بشكلٍ عام، بل في حياة البشريَّة جمعاء، فهي قد وضعت أسسًا

وخطوطًا عريضة للرسالة الإلهيَّة، و لميثاق السعادة الإنسانيَّة، عبر الالتزام بطاعة الله ورسوله ووليه المنصوص عليه من قبل الله جلَّ وعلا، وأوليائه اللاحقين من ذرِّيَّته، ولذا فإنَّ الزخم الإرشاديّ الذي طالما انطلق به النبيّ في تبليغ النصّ الإلهيّ عن الله عزَّ وجلَّ، بلغ أوجه في هذه الخطبة، ولنا أن نرصد هذا الزخم وإستراتيجيَّة التبليغ التي اتّبعها النبيّ، والتي خاطب من خلالها عقول وقلوب الناس المتطلّعين إليه، والذين يقع على عاتقه أمر هدايتهم إلى سبيل الرشاد، كي لا يضلّوا بعده أبدًا.

كما أنَّه من المفيد أن نلحظ أنَّ ما نحن بصدده من دراسةٍ لخطبة الغدير، في إستراتيجيَّة الإقناع بدمج الدليل الفكريّ مع التأثير العاطفيّ، يعدّ من أبرز سمات الخطبة عمومًا، حيث يأتي "تقديم الحجج والبراهين والأدلّة الداعمة للأفكار وتنوّع الصيغ المستعملة بحسب مقتضى الحال ووضوح الهدف من الخطبة ووضوح العبارات"[١٠]، في مقدّمة السمات التي ينبغي أن يتّسم بها الأسلوب الخطابيّ الناجح.

لقد توفّرت في خطبة الغدير كلِّ هذه السمات، ولكنَّ موضوع هذا البحث يلزمنا بتتبّع شواهد التدرّج الفكريّ في بعض فقرات الخطبة، بحسب التقسيم السابق لها، حيث نلحظ الآتي:

الفقرة الأولى: الحمد والتأمّل في صفات الله ورحمته: تبدأ من(الحمد لله الذي علا في توحده ، ودنا في تفرّده...) وتنتهي عند (إلّا بما دلَّ عزَّ وجلَّ على نفسه).

في هذه الفقرة نلحظ استهلال النبيّ للخطبة بالحمد لله أوّلًا، جريًا على عادته في خطبه السابقة، وتأكيدًا على دور الحمد في فتح الأبواب المغلقة، فضلًا عن العقول والقلوب، ثُمَّ تأتي الجمل التالية بعد الحمد مباشرة، في إطار التأكيد والتذكير بصفات الله عزَّ وجلَّ الكلّيّة، حيث يختار النبيَ منها ما يتعلّق بالوحدانيَّة والتفرّد والعلم الكامل والإرادة المطلقة؛ "عَلا في تَوَحُّدِهِ وَدَنا في تَفَرُّدِهِ وَجَلَّ في سُلْطانِهِ وَعَظُمَ في أَرْكانِهِ، وَأَحاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْماً وَهُوَ في مَكانِهِ، وَقَهَرَ جَميعَ الْخَلْقِ بِقُدْرَتِهِ وَبُرْهانِهِ"[١١]... وإنَّ الجمل الفعليَّة القصيرة المتلاحقة تأخذ فكر السامع إلى الخالق البارئ أوَّلًا، فهو مصدر كلِّ فعلٍ وإرادة، ثُمَّ تأتي مجموعةٌ أخرى من الجمل الإسميَّة

١٠ عبد العزيز، شريف "سمات الأسلوب الخطابي الناجح " khutabaa.com، ٢٠١٨.
١١ الأنصاري، خطبة الغدير النصّ الكامل .٢٧،

التي تتصدّرها الأسماء المشتقّة التي لها دلالات الأفعال؛ "حَميداً لَمْ يَزَلْ، مَحْمُوداً لا يَزالُ وَمَجيداً لا يَزُولُ، وَمُبْدِئاً وَمُعيداً وَكُلُّ أَمْرٍ إِلَيْهِ يَعُودُ. بارِئُ الْمَسْمُوكاتِ وَداحِي الْمَدْحُوّاتِ وَجَبّارُ الاَرَضينَ وَالسَّماواتِ، قُدُّوسٌ سُبُّوحٌ، رَبُّ الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحِ، مُتَفَضِّلٌ عَلى جَميعِ مَنْ بَرَأَهُ، مُتَطَوِّلٌ عَلى جَميعِ مَنْ أَنْشَأَهُ"[١٢]، وإذا بتلك الأسماء، من صفة مشبّهة (حميدًا، مجيدًا) واسم فاعل (مبدِئًا، معيدًا، بارئ، داحي، متفضّل، متطوّل) واسم مفعول (محمودًا) وصيغة مبالغة (جبّار، قدّوس، سبّوح)، كلّها تتضافر بدلالاتها لتحدّد فاعليّة وديمومة صفات الإرادة الإلهيَّة بالنسبة للإنسان، ثُمَّ يكون الانتقال للتذكير بالفعل الإلهيّ بالإنسان، انطلاقًا من قدرته وسلطانه، ومن فضله وتفضّله عليه، وننقل هنا موضع الشاهد: "يَلْحَظُ كُلَّ عَيْنٍ وَالْعُيُونُ لا تَراهُ... قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَتِهِ. لا يَعْجَلُ بِانْتِقامِهِ، وَلا يُبادِرُ إِلَيْهِمْ بِمَا اسْتَحَقُّوا مِنْ عَذابِهِ. قَدْ فَهِمَ السَّرائِرَ وَعَلِمَ الضَّمائِرَ، وَلَمْ تَخْفَ عَلَيْهِ الْمَكْنُوناتُ وَلاَ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْخَفِيّاتُ"[١٣]، حيث تعود الجمل الفعليَّة لتتصدّر التعبير عن الفعل الإلهيّ، وذلك لدلالتها على الحركة والحياة، ثُمَّ يعود النبيّ إلى ربط هذه الأفعال بالصفات الإلهيَّة الذاتيَّة من جديد، في جملٍ إسميَّةٍ وفعليَّةٍ تشترك في دلالاتها، حيث يغلب على الأسماء الاشتقاق (منشئ، دائم)، الذي يخلق جوًّا من التفاعل بين العبد وربّه، لتحضّر فكر السامع للاقتناع بوجوب الطاعة الإلهيَّة المطلقة ؛ "لَهُ الإِحاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالْغَلَبَةُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَالْقُوَّةُ في كُلِّ شَيْءٍ وَالْقُدْرَةُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ مِثْلَهُ شَيْءٌ. وَهُوَ مُنْشِئُ الشَّيْءِ حينَ لا شَيْءَ، دائِمٌ حَيٌّ وَقائِمٌ بِالْقِسْطِ، لا إِلهَ إِلّا هُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ. جَلَّ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الاَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الاَبْصارَ وَهُوَ اللَّطيفُ الْخَبيرُ. لا يَلْحَقُ أَحَدٌ وَصْفَهُ مِنْ مُعايَنَةٍ، وَلا يَجِدُ أَحَدٌ كَيْفَ هُوَ مِنْ سِرٍّ وَعَلانِيَةٍ، إِلاّ بِما دَلَّ عَزَّ وَجَلَّ عَلى نَفْسِهِ."[١٤] والملحوظ أنَّ الحقول المعجميّة لـ"قدرة الله" و"رحمته" و"علمه" تسيطر على جوّ النصّ، والألفاظ المحتشدة في هذه الحقول، حقل القدرة (سلطانه، قدرته، جبّار، قهر، متطوّل، بارئ، داحي، مبدئًا ومعيدًا...) وحقل الرحمة (متفضّل، حليم، رحمته...) وحقل العلم (يلحظ، فهم، علم، يدرك...) كلّها تسوّغ اللهجة التبليغيَّة لتضع حجر الأساس للتمهيد للنطق بالآية محور الخطبة، والأمر المنصوص عليه فيها.

١٢ الأنصاري، ٢٧،٢٨.
١٣ الأنصاري، ٢٨.
١٤ الأنصاري، ٢٩.

الفقرة الثانية: الشهادة لله بالقدرة الكاملة وبالعبوديَّة المطلقة له جلّ جلاله: تبدأ من (أشهد أنَّه الله الذي ملأ الدهر قدسه، والذي يغشى الأبد نوره...) تنتهي عند (ويحمده على كلِّ حال).

بعدما سيطرت صيغة الغائب على المقطع السابق من الخطبة، حيث رمز مرَّةً إلى الخالق جلَّ وعلا، ومرَّةً إلى الإنسان المخلوق، نجد أنَّ النبيّ انتقل مباشرةً في هذا المقطع إلى صيغة المتكلّم، حيث دخل بنفسه الشريفة في صلب الخطاب، فهو (يشهد) على كلِّ ما سبق، من الصفات الإلهيَّة الذاتيَّة، والفعل الإلهيّ الموجّه إلى العباد؛ "وَأَشْهَدُ أَنَّهُ اللهُ الَّذي مَلأَ الدَّهْرَ قُدْسُهُ، وَالَّذي يَغْشَى الأَبَدَ نُورُهُ، وَالَّذي يُنْفِذُ أَمْرَهُ بِلا مُشاوَرَةِ مُشير... وَأَشْهَدُ أَنَّهُ اللهُ الَّذي تَواضَعَ كُلُّ شَيْء لِعَظَمَتِهِ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْء لِعِزَّتِهِ، وَاسْتَسْلَمَ كُلُّ شَيْء لِقُدْرَتِهِ..."[١٥]، إنَّ الانتقال من الغائب إلى المتكلّم، يرفع مستوى تفاعل السامع من حالة الغياب إلى حالة الحضور، فبعدما كان الكلام عن الصفات الإلهيَّة وفعل الخالق بالإنسان، غدا الكلام عن شهود النبيّ، بشخصه الشريف ودلالته العظيمة وما يرمز إليه ويمثّله للسامعين من كمالٍ وقدوةٍ حسنة، على تلك الصفات وذلك الفعل... إنَّ لهذا الانتقال تأثيره في فكر المتلقّي، فالنبيّ قد وضع أسس الإقناع أوَّلًا، بطرح الصفات الإلهيَّة وعلاقة الخالق بالبشر، وإنَّ هذا التدرّج الفكريّ هو نفس التدرّج من شهادة التوحيد (أشهد أنَّ لا إله إلا الله)، وهي الأساس الأوَّل للإسلام، والسبب الأوَّل الذي يؤدّي إلى ما بعده، وقد سبق للناس أن اطّلعوا عليها وآمنوا بها وصدّقوها، فكان من أهداف هذا الانتقال الارتقاء بوعي السامع لاحقًا، بتجسيد الشهادة الثانية (أشهد أنَّ محمدًا رسول الله)، وهي نتيجة للسبب الأوَّل (الألوهيَّة والوحدانيَّة)، وهي أيضًا سببٌ لما بعدها، تمهيدًا للشهادة الثالثة... وبما أنَّ الناس مصدّقون بالشهادة الثانية، على الأقلّ أكثرهم، وربَّما بعضهم ظاهريًّا... فإنَّ النبيّ ينقل السامعين إلى هذه الشهادة في تدرّجه الفكريّ في عمليَّة الإقناع، ويضع نفسه شاهدًا على كلِّ ما طرحه في المقطع الأوَّل، مركّزًا على إطلاق أمر الله في خلقه، واستسلام كلّ شيءٍ لقدرته، مستخدمًا الجمل الفعليَّة القصيرة، بدلالاتها المفعمة بالحركة والحياة، ممَّا يزيد من حالة التفاعل بين الخطيب والجمهور... ومع بيان هذه الشهادة وفي خضمّ الحديث عن عظمة الخالق وقدرته، يسوق النبيّ تذكيرًا بانتقام

١٥ الأنصاري، ٢٩.

الله ممَّن يخالف أمره؛ "قاصِمُ كُلِّ جَبّار عَنيد، وَمُهْلِكُ كُلِّ شَيْطان مَريد"[١٦]، واختيار الجمل الإسميَّة يدلّ على ثبوت هذا الانتقام وترسيخه في نفوس السامعين، غير أنَّه لا يطيل الحديث فيه في هذا الموضع، بل يعود مباشرةً للتركيز على صفات الله الذاتيَّة؛ "لَمْ يَكُنْ لَهُ ضِدٌّ وَلا مَعَهُ نِدٌّ..."، مستخدمًا الجمل الفعليَّة القصيرة جدًّا، ذات الأفعال المتلاحقة ما بين فعلٍ وردّ؛ "يَشاءُ فَيُمْضي، وَيُريدُ فَيَقْضي، وَيَعْلَمُ فَيُحْصي، وَيُميتُ وَيُحْيي، وَيُفْقِرُ وَيُغْني، وَيُضْحِكُ وَيُبْكي، وَيُدْني وَيُقْصي، وَيَمْنَعُ وَيُعْطي"... وبعدما يعود إلى الجمل الإسميَّة الواصفة مرةً أخرى، نجده يعرّج على ذكر المؤمنين، بجمل قليلةٍ قصيرةٍ كتلك السابقة التي ذكر فيها انتقام الخالق من الظالمين؛ "الْعاصِمُ لِلصّالِحِينَ، وَالْمُوَفِّقُ لِلْمُفْلِحِينَ، وَمَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ"[١٧]، والواضح في صيغة هذه الجمل الأخيرة أنَّها مرتبطةٌ بالسابقة، فمحورها مواجهة الظلم، وكيف أنَّ الله يعصم الصالحين ويوفّق المفلحين... إنَّ البارز هنا هو التمهيد للخبر العتيد، خبر التبليغ بالآية، من خلال التحذير بعقاب الجبّار، والتأكيد على أنَّ الله يعصم الصالح الذي يختار طاعة الله وتنفيذ أمره على كلِّ ما سواه.

الفقرة الثالثة: الحمد والتسليم لله والطاعة لأمره: تبدأ من (أحمده كثيرًا) وتنتهي عند (هو الله الكافي الكريم).

يعرض النبيّ ﷺ في هذه الفقرة إيمانه على الملأ، لا بهدف الاستعراض والمباهاة، فهو منزّهٌ عن تلك الصفات، بل بهدف استكمال سياق التدرّج الفكريّ الذي بدأه آنفا، فهو إذ يقول: "أَحْمَدُهُ كَثيراً وَأَشْكُرُهُ دائِماً عَلَى السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ وَالشِّدَّةِ وَالرَّخاءِ، وَأُومِنُ بِهِ وَبِمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ."[١٨]، فهو يرمي من خلال الحمد والشكر العلنيّ وإعلان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله إلى عدّة أهدافٍ تخدم هدفه الأساس من الخطبة، ألا وهو التبليغ بالآية الكريمة والنصّ على تنصيب الوصيّ، فيتدرّج من إعلان الحمد والإيمان إلى إبراز ما يقتضيه هذا الإيمان من طاعةٍ لربِّه والتزامٍ بأوامره ونواهيه، فهو يقول للناس أنَّه ومن خلال موقعه الرساليّ كنبيٍّ مبلّغٍ عن الله، ومن خلال موقعه الإنسانيّ كبشرٍ يعرف حقّ الله عليه، هو يحمد الله ويشكره

١٦ الأنصاري، ٣٠.
١٧ الأنصاري، ٣١.
١٨ الأنصاري، ٣١.

على نعمائه، كما أنَّه يؤمن به وبعالم الغيب (ملائكته) وبرسالاته المنزلة (كتبه ورسله)، وذاك الإيمان يستوجب طاعته له "أَسْمَعُ لأَمْرِهِ وَأُطِيعُ"[١٩]، فهو بهذه الطاعة مثالٌ للمؤمنين يقتدون به من ناحية، كما أنَّه مُلزَمٌ بتأدية ما أمره الله به (من تبليغ الآية)، وهو هنا يتشدّد في هذه النقطة على نفسه مظهرًا خشيته من مخالفة الأوامر الإلهيَّة "رَغْبَةً فِي طاعَتِهِ وَخَوْفاً مِنْ عُقُوبَتِهِ، لأَنَّهُ اللهُ الَّذي لا يُؤْمَنُ مَكْرُهُ وَلا يُخافُ جَوْرُهُ... وَأُؤَدّي ما أَوْحى بِهِ إِلَيَّ، حَذَراً مِنْ أَنْ لا أَفْعَلَ فَتَحِلَّ بي مِنْهُ قارِعَةٌ لا يَدْفَعُها عَنّي أَحَدٌ..."[٢٠]، فهو يقدّم للسامعين أنموذجًا في التشدّد على أنفسهم بتنفيذ أمر الله، إذ هو ليس إلّا واسطةً بينهم وبين ربِّهم، فإذا كان وهو النبيّ المعصوم يحذر غضب ربِّه جرّاء مخالفته، فحريٌّ بهم وهم البشر الخطّاؤون أن يحذروا أكثر، فيحرصوا على طاعة الأمر دون تردّد... إنَّ هذا السياق الذي يمهّد به النبيّ للتبليغ بالآية يشوّق السامعين لمعرفة هذا الأمر العظيم الذي يخشى النبيّ نفسُه من عواقب تبليغه، كما يرفع من وتيرة ترقّبهم له واستعدادهم للقبول به ربَّما حتَّى قبل أن يعرفوا ماهيّته، والنبيّ في كلِّ ذلك يتواضع لله ويبيِّن لسامعيه انصياعه الكامل لعبوديَّة الله قائلًا: "وأُقِرُّ لَهُ عَلى نَفْسي بِالْعُبُودِيَّةِ، وَأَشْهَدُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ"[٢١]، وكيف ينطلق من هذا الانصياع ليحرص على تبليغ الأمر واثقًا من الدعم الإلهيّ له مع خطورة المهمَّة؛ "لأَنَّهُ قَدْ أَعْلَمَني أَنّي إِنْ لَمْ أُبَلِّغْ ما أَنْزَلَ إِلَيَّ في حَقِّ عَلِيٍّ فَما بَلَّغْتُ رِسالَتَهُ، وَقَدْ ضَمِنَ لي تَبارَكَ وَتَعالى الْعِصْمَةَ مِنَ النّاسِ وَهُوَ اللهُ الْكافِي الْكَريمُ"[٢٢]... ويُبقي النبيّ أمر حيثيَّة التبليغ وتفاصيله سِّرا ريثما يفصح عنه في الفِقرة التالية، فيرمز إليه بذكر "حقّ عليّ" دون تفصيل، وذلك حرصًا على حبس أنفاس الجمهور لمعرفة الأمر الخطير، فيضمن بذلك حسن استماعهم إليه وتفاعلهم معه، وبالتالي طاعتهم لأمر الله المتمثّل بفحوى الآية الكريمة. وإن بروز ضمير المتكلّم ليتصدّر الجمل الفعليَّة المتلاحقة في هذه الفقرة، واستخدام الأفعال الدالّة على الحمد والتسليم والاعتقاد والإيمان من جهة (أحمده، أشكره، أؤمن به، أقرّ له، أشهد له، أستسلم...) والدالَّة على المبادرة والتحرّك من

١٩ الأنصاري، ٣١.
٢٠ الأنصاري، ٣١.
٢١ الأنصاري، ٣٢.
٢٢ الأنصاري، ٣٢.

جهةٍ أخرى (أبادر، أؤدّي)، تخدم التدرّج المنطقيّ للفكرة المزمع طرحها... لأنَّ الانتقال من الاعتقاد بالله إلى طاعته هو أمرٌ منطقيّ، إذ لا يصحّ الاعتقاد بالله دون تنفيذ أوامره، والأسباب هنا قد تلاحقت لتؤدِّي إلى النتائج، في تدرّجٍ منطقيٍّ مرسومٍ ومدروس.

الفقرة الرابعة: التبليغ بالآية الكريمة وظروف نزولها وموقف النبيّ التبليغيّ منها: تبدأ من (فأوحى إليّ) وتنتهي عند (والله يعصمك من الناس).

بعدما بلغ النبيّ في خطبته مفصّلًا رئيسًا يستدعي أن يصرّح بما رمز إليه سابقًا، وبعدما تدرّج فكريًّا بسامعيه نحو الفكرة المقصودة، من معرفة الله وضرورة إطاعة أمره عمومًا، ومعرفته هو به والتزامه بتبليغ رسالته كاملةً غير منقوصة خصوصًا، وتحفيز السامعين بطرح القدوة من نفسه تارةً وإلزامهم بما ألزم به نفسه تارةً أخرى، نجده يدخل معترك التبليغ عند هذه الفقرة، بتلاوة الآية مباشرةً مع تفسيرها: "﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ـفي عَلِيٍّ، يَعْني فِي الْخِلافَةِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبي طالِب ـ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾"[٢٣]، وذكر سبب نزولها "إِنَّ جَبْرئِيلَ هَبَطَ إِلَيَّ مِراراً ثَلاثاً يَأْمُرُني عَنِ السَّلامِ رَبِّي ـ وَهُوَ السَّلامُ ـ أَنْ أَقُومَ في هذَا الْمَشْهَدِ فَأُعْلِمَ كُلَّ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ: أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِب أَخي وَوَصِيّي وَخَليفَتي عَلى أُمَّتي وَالإمامُ مِنْ بَعْدي..."[٢٤].

إنَّ النبيَّ ﷺ قد وصل في التدرّج الفكريّ لخطبته، بعد تجسيده في الفقرات السابقة للشهادتين الأولى والثانية، وهما سببان مترابطان كما أسلفنا سابقًا، إلى تجسيد الشهادة الثالثة ضمنًا وهي النتيجة الحتميَّة للأسباب السابقة؛ "أشهد أنَّ عليًّا وليّ الله"، ثُمَّ هو يتابع مذكّرًا بحديث المنزلة "مَحَلُّهُ مِنّي مَحَلُّ هارُونَ مِنْ مُوسى إلاّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدي" والآيات الكريمة التي نزلت بحقّه معلنةً من الله عزَّ وجلَّ اصطفاءه للإمامة، والنبيّ هنا يوثّقها في خطبته ويؤمّن عليها لكي لا يُساء فهمها ويعمّى تأويلها... والسرد في هذه الفقرة تاريخيٌّ يتوخّى من خلاله النبيّ التبليغ المباشر وتأويل النصّ القرآنيّ، ثُمَّ نقل الأحداث كما جرت، بدءًا بسبب نزول الآية وهبوط جبرائيل مرارًا، ومرورًا بالأحاديث والآيات الشريفة الناصّة على

٢٣ الأنصاري، ٣٢،٣٣.
٢٤ الأنصاري، ٣٣.

الإمامة، وصولًا إلى التذكير بما عاناه في سبيل الدعوة سابقًا من تكذيبه ونعته بالأوصاف المخلّة؛ "وَكَثْرَةِ أَذاهُمْ لي غَيْرَ مَرَّة، حَتّى سَمُّوني أُذُناً"، وهو في هذا السرد يتناوب بين ضمير المتكلّم العائد إليه، وضمير الغائبين العائد إلى المنافقين، الذين يشير إليهم صراحةً، ولكنَّه لا يسمّيهم بأسمائهم... ولعلَّ السامعين كانوا في ذلك الحين يتساءلون، أنَّ لماذا لا يصرّح النبيّ بأسماء هؤلاء، ويأتيهم الجواب منه نفسه دون أن يسألوا، "وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَ الْقائِلِينَ بِذلِكَ بِأَسْمائِهِمْ لَسَمَّيْتُ، وَأَنْ أومِئَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيانِهِمْ لأَوْمَأْتُ، وَأَنْ أَدُلَّ عَلَيْهِمْ لَدَلَلْتُ، وَلكِنّي وَاللهِ في أُمُورِهِمْ قَدْ تَكَرَّمْتُ"[٢٥]، ويأتي تكرار الجمل الشرطيَّة الثلاثة المعطوفة بمعانيها المتصاعدة (لو شئت أن أسمي لسمّيت، وأن أومئ لأومأت، وأن أدلَّ لدللت) من التسمية إلى الإيماء (وهو أهون الإشارة) إلى الدليل (وهو البرهان القاطع)، ليظهر به النبيّ حلمه وعفوه من ناحية، ويرفع وعي السامعين إلى التمييز بين الحقّ والباطل من ناحيةٍ أخرى، فيتمكّنون من مواجهة ما يعلمه من افتراء وإنكارٍ مقبل... فالنبيّ بهذه العبارة أيضًا يؤسّس لوسائل المواجهة التي ينصح المؤمنين بالتحلّي بها، أن يكون كلام الله ورسوله هما الفيصل عندهم، فلا يأخذون إلّا بهما... وللجمل الشرطيَّة هنا وقعٌ وتأثيرٌ كبيرين، لما فيها من تحذيرٍ وترهيب، يزيد من استعداد السامعين لتقبّل الأمر ورفض كلّ تشكيكٍ فيه. وبما أنَّ هذه الفقرة هي محور الخطبة ومرتكزها، ففيها تمّ التبليغ بالأمر الإلهيّ صراحة، وكان ما قبلها تمهيدًا له وتدرّجًا نحوه، وما بعدها تتاليًا لعواقبه وتحذيرًا من مغبّة رفضه ومخالفته، فإنَّ تضمينها للآيات القرآنيَّة والأحاديث الشريفة هو ممَّا يزيد من مصداقيتها في نفوس السامعين وتأثيرها في قناعتهم بحقّانيَّة الإمامة، بالإضافة إلى اشتراكها مع هذه الآيات والأحاديث في جميع دلالاتها اللفظيَّة والمعنويَّة... فالآية الأولى البادئة بالنداء المقصود للنبيّ (يا أيُّها النبيّ) والأمر والنهي (بلّغ، وإن لم تفعل فما بلّغتَ) تتضمّن تشديدًا في اللهجة على ضرورة التبليغ مهما كانت العقبات، وعلى أهمّية الأمر المبلَّغ بحيث أنَّ التبليغ به يعدل التبليغ بالرسالة كلّها، والتعهّد من قبل الله لنبيّه بأن (يعصمه من الناس)، في إشارةٍ إلى ما سيفعله هؤلاء الناس من رفضٍ وإنكارٍ لهذا الأمر... كما أنَّ تكرار حرف (إنَّ) المشبّه بالفعل، والذي يفيد التوكيد، وقد التحقيقية،

٢٥ الأنصاري، ٣٤،٣٥.

والقسم، في مواضع عديدة من هذه الفقرة، في الآيات وغيرها، (إلّا أنّه، إنّما وليّكم، قد والله ...)، يخدم هذا الاتجاه المسيطر على جوّها، أي التشديد على طاعة الله وتنفيذ أوامره، وعلى رأسها هذا الأمر... وهنا أيضًا تبرز الوحدة الموضوعيَّة والترابط والتدرّج الفكريّ بين مفاصل الخطبة وفقراتها، حيث تأتي بقية الخطبة لتردّ على هذه النقطة بالذات، ولتوجّه المؤمنين وترشدهم إلى كيفيَّة مواجهة الرفض المتوقّع.

الفقرة الثامنة: التأكيد على التلازم بين نبوّته وإمامة عليّ: تبدأ من (معاشر الناس، النور من الله) وتنتهي عند (ولدي من صلبه).

لقد قام النبيّ ﷺ بالتبليغ بالآية الكريمة وتفسيرها، وصرّح تصريحًا بما أراده الله عزَّ وجلَّ منه ومنها، ثُمَّ انثنى إلى المستمعين لخطبته، الذين جمعهم في ذلك المكان الأثير ليلقي عليهم حجّته، فخاطبهم مباشرةً مستعملًا أسلوب التأثير الوجدانيّ، الذي سنناقش دلالاته وشواهده في المبحث الثاني، فثبّت حجّته عليهم فكريًّا وأكّد على التبليغ المقصود وجدانيًّا، ثُمَّ أعلن ولاية علي ﷺ بالنَّصّ القاطع "ألا فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه"[٢٦]، ثُمَّ ها هو يبتدرهم باستكمال تبليغه!

إنَّ الآية قد تمّ الإخبار بها وبتفسيرها، وإعلان ولاية الإمام عليٍّ ﷺ قد تمّ علنًا، فأيّ تبليغٍ يريد النبيّ أن يستكمله بعد؟

إنَّه التبليغ بدور هذا الوصيّ، وبأنَّه أوَّل الأوصياء الاثني عشر من نسله، أوَّلهم الإمام عليّ ﷺ وآخرهم المهديّ ﷺ، وإنَّه الإخبار بما سيكون من أمر الأمَّة بعده وأمر الأئمة، ليعرف المؤمنون أيَّ دربٍ يسلكون، وكيف يواجهون ما سيكون...

في صدد هذا التبليغ، يربط النبيّ بين ما سبق وقدّم له من صفات الخالق جلَّ وعلا، وعلاقته بالمخلوقين، ودوره النبويّ في عمليَّة التبليغ عن ربِّ العالمين، وبين ما كرّسه في فقرات الخطبة السابقة من تجسيدٍ ضمنيٍّ للشهادتين، "أشهد أن لا إله إلّا الله" و"أشهد أنَّ محمدًا رسول الله"، ثُمَّ ما قرنه بهما ضمنيًّا أيضًا من الشهادة الثالثة، "أشهد أنَّ عليًّا وليَّ الله"، ثُمَّ هو يوضّح العلاقة الحقيقية بين النبوّة والإمامة، فيعود إلى حقيقة الوحدانيَّة الإلهيَّة المذكورة في مطلع الخطبة، "علا في

٢٦ الأنصاري، ٤١.

توحّده ودنا في تفرّده"، وإلى حقيقة عبوديّته له وطاعته لأمره، "أُقِرُّ لَهُ عَلى نَفْسي بِالْعُبُودِيَّةِ، وَأَشْهَدُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ"، ليقول: "النُّورُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَسْلُوكٌ فِيَّ، ثُمَّ في عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِب، ثُمَّ فِي النَّسْلِ مِنْهُ إِلَى الْقائِمِ الْمَهْدِيِّ"[٢٧]... إنَّ مفهوم الإمامة الذي أعلنه في فقرةٍ سابقةٍ من الخطبة، وحذّر من إنكاره وحضّ على التمسّك به، مستعملًا الإقناع من جهة، والتأثير الوجدانيّ من جهةٍ ثانية، قد أخذت تتّضح صورته أكثر، حين ارتبط بمفهوم النبوّة، وحين راح النبيّ يبيّن حدودها، فهي لا تقتصر على الإمام عليّ ﷺ فحسب، بل هي مستمرّةٌ بعده حتّى القائم المهديّ ﷺ من ولده، ومن جملة مهامّ الإمام المهديّ أن "يَأْخُذُ بِحَقِّ اللهِ وَبِكُلِّ حَقٍّ هُوَ لَنا، لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَنا حُجَّةً عَلَى الْمُقَصِّرينَ وَالْمُعانِدينَ وَالْمُخالِفينَ وَالْخائِنينَ وَالآثِمينَ وَالظّالِمينَ وَالْغاصِبينَ مِنْ جَميعِ الْعالَمينَ"[٢٨]... إنَّ النبيَّ قد ربط الأوَّل بالآخر، وأوضح في هذه الفقرة عاقبة المخالفين بالدليل المبين، ثُمَّ استتلى ليشتغل على التأثير الوجدانيّ بتبيان عاقبتهم الوخيمة... إنَّ التدرّج الفكريّ قد بلغ غايته هنا، فبرز لنا من خلال مجموعة جملٍ خبريَّةٍ إسميَّة وفعليَّة، وأتى المؤثِّر العاطفيّ ليقوم بدوره أيضًا... في جملٍ إنشائيَّةٍ تخلق جوًّا تفاعليًّا، وهو ما سنترك بيانه للمبحث الثاني من هذه الدراسة.

الفقرة العاشرة: الإخبار بمستقبل الأمَّة من بعده (اغتصاب الخلافة وإمامة الأئمة): تبدأ من (معاشر الناس، إني أدَعُها إمامة) وتنتهي عند (والله مصدّق وعده).

إنَّ الخطاب ومن خلال التدرّج الفكريّ للتبليغ يصل بالمستمعين إلى توضيح فحوى الإمامة، فيخاطبهم مباشرةً (معاشر الناس)، مستعملًا (إنَّ) التوكيديَّة (إنِّي أدعها)، و(قد) التحقيقيَّة (قد بلّغت)، و(لام الأمر) (فليبلّغ)، ليثبّت الفكرة النهائيَّة التي يعلن من خلالها الأمر الإلهيّ؛ "إِنِّي أَدَعُها إِمامَةً وَوِراثَةً في عَقِبي إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ، وَقَدْ بَلَّغْتُ ما أُمِرْتُ بِتَبْليغِهِ حُجَّةً عَلى كُلِّ حاضِرٍ وَغائِبٍ، وَعَلى كُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ شَهِدَ أَوْ لَمْ يَشْهَدْ، وُلِدَ أَوْ لَمْ يُولَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الْحاضِرُ الْغائِبَ وَالْوالِدُ الْوَلَدَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ"[٢٩]؛ هي الإمامة، امتداد النبوَّة... تبليغٌ من النبيّ الخاتم للإنسانيَّة جمعاء، (ممَّن شهد أو لم يشهد، ولد أو لم يولد...)، وقد قدّمت الجمل القصار التوكيديَّة الحقيقة بطريقةٍ حاسمةٍ نهائيَّة لا جدل فيها ولا تشكيك معها.

٢٧ الأنصاري، ٤٦.
٢٨ الأنصاري، ٤٦، ٤٧.
٢٩ الأنصاري، ٤٨.

الفقرة الثالثة عشرة: الإخبار بالأئمَّة من صلب الإمام عليّ ﷺ والإمام المهديّ ﷺ وصفاته: تبدأ من (معاشر الناس، ألا وإنِّي أنا النذير) وتنتهي عند (في سرّه وعلانيته).

في هذه الفِقرة، يستكمل النبيّ آخر بنود تبليغه المقدّس، ليضع النقاط على الحروف، ويوضِّح بالدليل القاطع ما يمكن أن يحاول إغفاله المنكرون، بقصدٍ أو بغير قصد، فتأتي الجمل الموجّهة إلى جمهور المسلمين، من حاضرين وغائبين، لترسم مستقبل الأمَّة الإسلاميَّة القريب والبعيد، ولا بدَّ لكي يعرف المؤمن مساره من وضع الأمور في إطارها الواضح والنهائيّ، الذي يختصره النبيّ بتلك العبارات القصيرة المتقابلة المتتالية، تتصدّرها (ألا) بفتح الهمزة وتخفيف اللام، وهي أداة استفتاح، يُستفتح بها الكلام، وتفيد التنبيه وطلب الشيء بلين ورفق، وتفيد مع التنبيه، تحقّق ما بعدها، و"تدخل على الجملة خبريَّةً كانت أو طلبيَّة"[٣٠]، وهي هنا تدخل على الجملة الخبريَّة الإسميَّة المصدّرة بـ(إنَّ) المشدّدة لتفيد التأكيد، وهذا ما يظهر لنا هنا: "مَعاشِرَ النّاسِ، أَلا وَإنّي أَنَا النَّذيرُ وَعَلِيٌّ الْبَشيرُ. مَعاشِرَ النّاسِ، أَلا وَإنّي مُنْذِرٌ وَعَلِيٌّ هاد. مَعاشِرَ النّاسِ، إنّي نَبِيٌّ وَعلِيٌّ وَصِيّي. مَعاشِرَ النّاسِ، أَلا وَإنّي رَسُولٌ وَعَلِيٌّ الأمامُ وَالْوَصِيُّ مِنْ بَعْدي، وَالأئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ وُلْدُهُ. أَلا وَإنّي والِدُهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ صُلْبِه"[٣١]، وتأتي "معاشر الناس" مكرّرةً لتوكيد الخطاب، بينما تستمرّ صيغة (ألا) في الجمل التالية " أَلا إنَّ خاتَمَ الأَئِمَّةِ مِنَّا الْقائِمَ الْمَهْدِيَّ. أَلا إنَّهُ الظّاهِرُ عَلَى الدّينِ. أَلا إنَّهُ الْمُنْتَقِمُ مِنَ الظّالِمِينَ..."[٣٢] وهكذا، يبيّن النبيّ صفات الإمام المهديّ وما قد أوكله الله إليه من مهامّ، ويستعمل تكرار الكلمات والمقاطع المتساوية ليخلق إيقاعًا يرسّخ الفكرة ويؤثّر في النفس والروح بشكلٍ مواكبٍ لها تمامًا.

إنَّ هذه النقطة بالذات، تلازم وتلاحم التدرّج المنطقيّ مع التأثير العاطفيّ، واندماجهما وتناوبهما في جميع أنحاء خطبة الغدير، بحيث نجد الفصل بينهما صعبًا بل مستحيلًا، أي بين الفكرة وما تثيره في النفس من مشاعر، ولكن دراسة هذا التأثير تستوجب الغوص في بعض شواهده ومدلولاته، ولذا فإنَّ الانتقال إلى المبحث الثاني من هذا البحث سيكرّس لنا هذه الحقيقة.

٣٠ مُحَمَّد بن الحسن النجفي الرضي، شرح الرضي لكافيّة ابن الحاجب، ج٢، د.ت. ٣٥٣.
٣١ الأنصاري، خطبة الغدير النصّ الكامل ٥٤،
٣٢ الأنصاري، ٥٤.

خلاصة المبحث الأوَّل:

لقد ثبت لنا من خلال دراسة التدرّج المنطقيّ للأسباب والنتائج، عبر تحليل خطبة الغدير بألفاظها وعباراتها وفقراتها المتسلسلة، ودلالاتها المعنوية، أنَّ النبيّ ﷺ قد اتّبع فيها منهجيَّة الإقناع بمخاطبة أفكار السامعين وعقولهم، فكان تدرّجه من صفات الوحدانيَّة الإلهيَّة، إلى حقّانية الرسالة المحمّديَّة، التي يمثّلها بشخصه الشريف، عبدًا لله ونبيًّا مبلّغًا برسالته مطيعًا لأمره مؤكّدًا على وجوب طاعته، حتَّى بلغ النتيجة النهائيَّة، ألا وهي إعلان أمر الله في تنصيب الإمام عليّ عليه السلام وصيًّا له وإمامًا للناس، ومن بعده أولاده الأئمة المعصومون وخاتمهم المهديّ عجل الله فرجه.

ومع أنَّ الخطبة كما أسلفنا تتمتّع بالوحدة الموضوعيَّة والترابط، ومع أنَّ هذا المبحث يتتبّع شواهد التدرّج الفكريّ في تبليغ الأمر الإلهيّ، من خلال دراسة فقرات الخطبة بشكلٍ متتالٍ، إلّا أنَّ بعض الفقرات يسيطر عليها عامل التأثير العاطفيّ المتلازم مع عملية الإقناع، وستتم دراسة هذا التأثير في المبحث الثاني من هذه الدراسة، ومع أنَّ العامل العاطفيّ هو بحدّ ذاته جزءٌ من التدرّج الذي يستوجبه الإقناع، وله دورٌ كبيرٌ في تلاحم أجزاء الخطبة وتحقيق أهدافها، كما أنَّه من الصعوبة بمكانٍ أن نفصله عن العامل الفكريّ، إلّا أنَّ دراسته بشكلٍ مستقلٍّ يمكن أن تعطيه حقّه وتبرز وجوده الفاعل في الخطبة بشكلٍ أفضل.

المبحث الثاني:

دور التأثير العاطفيّ في إستراتيجيَّة الإقناع بالتبليغ الإلهيّ بنصِّ الغدير:

أجمع الباحثون على أنَّ النبيّ ﷺ "استعمل في عمليَّة إقناع الناس وتطييب نفوسهم ورفع الشكّ والريب الذي قد يراودهم أساليب متنوّعة ومختلفة منها: قوة وحسن البيان، والسلوك والقدوة الحسنة، وبيان العلَّة، والتقابل والتشابه، وضرب الأمثال، وتقديم الدليل والبرهان، والعاطفة"[٣٣].

لقد حاولنا في المبحث الأوَّل أن ندرس التدرّج المنطقيّ للإقناع بالدليل الفكريّ في خطبة الغدير، للوصول إلى تبليغ النصّ الإلهيّ بتنصيب الإمام، ولا بدّ لنا في هذا المبحث من

٣٣ القيقط، سلاف "أساليب الإقناع وتأثيراتها الإيجابية من خلال الأحاديث النبوية)،" المنصّة الجزائرية للمجلات العلمية المجلد ١٦ (د.ت. ٣٠٥.

استكمال دراسة أحد أهم عوامل الإقناع، ألا وهو استعمال المؤثّراتٍ العاطفيَّة والوجدانيَّة، ورصد دورها في عمليَّة الإقناع بحقّانيَّة هذا التبليغ.

وكما أنَّ الإنسان يعيش في هذه الدنيا بعقله وقلبه، كذا فإنَّ مخاطبته لا تكون كاملةً إلّا من خلال مراعاة هذين المكوّنين الأساسيّين للشخصيَّة الإنسانيَّة، وقد اشتغل جميع الأنبياء في تبليغهم الإلهيّ على هاتين الناحيتين، وقد تميّز خطاب النبيّ الأعظم ﷺ عمومًا بالكمال التفاعليّ، حيث استوحى من الذكر الحكيم إستراتيجيَّة التأثير في الجانبين الفكريّ والوجدانيّ، واستطاع بأحاديثه الشريفة وخطبه المباركة أن يقنع العقول المتحجّرة والأفئدة الغليظة، ولئن كان داوُد عليه السلام مُليّنًا للحديد ليصنع منه دروعًا تقي الإنسان بأس الإنسان، فقد كان مُحَمَّد ﷺ مُليّنًا للقلوب يُحسن مخاطبتها ومقارعتها ومجاذبتها ليصنع منها أوعيةً طاهرةً تتّسع للروح العامرة بالإيمان، ولئن كانت تقنية مخاطبة العقول تقوم على المنطق والبيان، والتدرّج الفكريّ المدروس الدقيق نحو الدليل والبرهان، فإنَّ مخاطبة القلوب تحتاج إلى درايةٍ وصبرٍ ومعرفةٍ بطبائع البشر، وإنَّ ما نتوخّاه من خلال هذا المبحث هو رصد اللمحات والشذرات التي أطلقها النبيّ ليؤثّر في وجدان سامعيه، فضلًا عن عقولهم، واستعماله لمؤثّراتٍ لفظيَّةٍ ومعنويَّةٍ متعدّدة، تصبّ في خانة التأثير المباشر وغير المباشر في نفوسهم، لعلمه بأنَّ اقتناع المرء بالدليل العقليّ وحده لا يكفي ليتمسّك به، فالنفس أمَّارةٌ بالسوء، وخصوصًا إذا ما كان التبليغ يتعلّق بأمرٍ ترفضه أمزجة بعض ضعفاء الإيمان، كولاية عليّ عليه السلام، وهم في الأصل لم يؤمنوا إلّا خوفًا وطمعًا، ولعلَّهم ينتظرون فرصة رحيل النبيّ عنهم لينقلبوا على أعقابهم، فكيف يرضَون بأن يكون له خليفةٌ يحذو حذوه ويقاتلهم على التأويل كما قاتلهم على التنزيل؟!

لقد كان لاستعمال المنطق والدليل دوره في إثبات الحجَّة وإقناع الجمهور بحقّانيَّة الإمامة، على أنَّ الاقتناع بالأمر شيء، وتنفيذه والالتزام به شيءٌ آخر، وقد علم الله عزَّ وجلَّ بما في نفوس المنافقين سابقًا، فخاطبهم في كتابه الحكيم بآياتٍ عديدةٍ تنبّههم وتعظهم من ناحية، وتناقشهم وتلقي عليهم الحجَّة من ناحيةٍ ثانية، وترهبهم وترغّبهم من ناحيةٍ ثالثة، بحيث يكون لهم وازعٌ من أنفسهم إن سوّلت لهم مخالفة الأمر الإلهيّ، وهذا ما اشتغل عليه النبيّ ﷺ في خطبة الغدير،

مقتديًا بالأسلوب الإلهيّ القرآنيّ، وسيكون لنا عدّة وقفاتٍ مع فقراتٍ من الخطبة، برزت فيها تلك الاشتغالات الوجدانيَّة، لتتبّعها ومراقبة تأثيرها المتوقّع في نفوس المتلقّين، وسنقوم بعرض الفقرات المقصودة من خلال العناوين التي سبق أن حدّدناها في مقدّمة هذا البحث.

الفقرات الخامسة والسادسة والسابعة:

-**مخاطبة الناس ودعوتهم لإطاعة الأمر الإلهيّ**: تبدأ من (فاعلموا معاشر الناس) وتنتهي عند (ألا لا تحلّ إمرة المؤمنين لأحدٍ بعدي غيره).

-**إعلان ولاية الإمام عليّ ﷺ والتذكير بأفضليَّته عند الله**: تبدأ من (يا أيُّها الناس) وتنتهي عند (الذي رضي بالحقِّ والصبر).

-**إشهاد الله على التبليغ وإعلانه، مع التحذير من مغبّة الرفض**: تبدأ من (معاشر الناس، قد استشهدت الله) وتنتهي عند (من الحبّ والبغض).

إنَّ الملحوظ أنَّ التأثير العاطفيّ الذي اشتغل عليه النبيّ بدأ منذ بداية الخطبة، لا في هذا الموضع فحسب، فكلّ ما كان النبيّ ينطق به، استهلالًا وتدرّجًا من الحمد ووصف الذات الإلهيَّة إلى التأكيد على نبوّته ومن ثُمَّ التبليغ بوجوب إطاعة الأمر الإلهيّ في إمامة أمير المؤمنين الإمام عليّ ﷺ، كلُّ ذلك كان له وقعه بلا ريبٍ في نفوس المسلمين وقلوبهم، سلبًا وإيجابًا، ولكن اشتغال النبيّ في البداية كان على الإقناع بالدليل، و كان التأثير الوجدانيّ إذ ذاك تلقائيًّا غير مقصود، وأقلّ بروزًا ممَّا هو في هذه الفقرات، أمَّا هنا فإنَّ هذه الفقرات تلت التبليغ بالأمر الإلهيّ مباشرة، وتابع النبيّ من خلالها خطبته تمهيدًا لإعلانه الولاية بالنصّ، "من كنت مولاه فعليّ مولاه، ولذا فإنَّنا نلحظ اختلافًا في النبرة واللهجة والصيغة، فبعدما كانت الجمل الخبريَّة هي المسيطرة، نلحظ بروز الجمل الإنشائيَّة، وصيغة الأمر الجماعيّ بفعل الأمر تحديدًا؛ "اعْلَمُوا مَعاشِرَ النّاسِ ذلِكَ فيهِ وَافْهَمُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ قَدْ نَصَبَهُ لَكُمْ وَلِيّاً وَإماماً... فَاسْمَعُوا وَأَطيعُوا وَانْقادُوا لأَمْرِ اللهِ رَبِّكُمْ... فَضِّلُوهُ... لا تَضِلُّوا عَنْهُ وَلا تَنْفِرُوا مِنْهُ، وَلا تَسْتَنْكِفُوا عَنْ وِلايَتِهِ... تَدَبَّرُوا القُرْآنَ وَافْهَمُوا آياتِهِ... إنَّ إبْليسَ أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ بِالْحَسَدِ، فَلا تَحْسُدُوهُ..."[٣٤] بل إن اختياره للآيات القرآنيَّة في هذا الموضع أتى بنفس الصيغة، وذلك استشهاده بقوله تعالى:

٣٤ الأنصاري، خطبة الغدير النصّ الكامل .٤٥_٣٦،

﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾... إنَّ هذه الصيغة الإنشائيَّة الطلبيَّة، وهذا الأمر المتتالي، قد سبق مباشرةً وقوف النبيّ ﷺ وأخذه بعضد الإمام عليّ ﷺ ونطقه بخلاصة نصّ الولاية، فكان لها تأثيرٌ كبيرٌ على قبول المسلمين للنصّ، نظريًّا بتبليغ الآية، وتطبيقًا برؤية التنصيب، ولكن يبقى أمر البيعة الجماعيَّة، وهو ما حشَّد له النبيّ مؤثّراتٍ وجدانيَّةٍ أخرى في هذه الفقرات والفقرات التالية.

لم تكن صيغة الأمر وحدها هي الفاعلة هنا، بل رافقتها صيغةٌ خبريَّةٌ كان التفاعل فيها عبر التركيز على فحواها، ألا وهو الترهيب والترغيب، والتخويف من غضب الله ومغبّة مخالفة أمره، والترغيب بما أعدّه عزَّ وجلَّ للمطيعين؛ وأتت قوَّة تأثير الجمل الخبريَّة من خلال التقديم والتأخير بهدف التوكيد "مَلْعُونٌ مَنْ خالَفَهُ، مَرْحُومٌ مَنْ تَبِعَهُ وَصَدَّقَهُ"، والنفي بـ(لا النافية للجنس) وبـ(ما) مع التكرار؛ " لا حَلالَ إلّا ما أَحَلَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَهُمْ، وَلا حَرامَ إلاّ ما حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَهُمْ... ما مِنْ عِلْمٍ إلّا وَقَدْ أَحْصاهُ اللهُ فِيَّ... وَما مِنْ عِلْمٍ إلّا وَقَدْ عَلَّمْتُهُ عَلِيّاً"[٣٥] والنفي القاطع بـ(لن المستقبليَّة الناصبة) "وَلَنْ يَتُوبَ اللهُ عَلى أَحَدٍ أَنْكَرَ وِلايَتَهُ وَلَنْ يَغْفِرَ لَهُ"، والنفي مع الإثبات بـ(ما ولا وإلّا) للتحديد والتعيين "ما نَزَلَتْ آيَةُ رِضىً فِي الْقُرْآنِ إلاّ فيهِ، وَلا خاطَبَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا إلاّ بَدَأَ بِهِ، وَلا نَزَلَتْ آيَةُ مَدْحٍ فِي الْقُرآنِ إلاّ فيهِ، وَلا شَهِدَ اللهُ بِالْجَنَّةِ فِي (هَلْ أَتى عَلَى الإنْسانِ) إلاّ لَهُ، وَلا أَنْزَلَها فِي سِواهُ وَلا مَدَحَ بِها غَيْرَهُ...لا يُبْغِضُ عَلِيّاً إلاّ شَقِيٌّ، وَلا يُوالي عَلِيّاً إلاّ تَقِيٌّ، وَلا يُؤمِنُ بِهِ إلاّ مُؤْمِنٌ مُخْلِصٌ[٣٦]... وَما عَلَى الرَّسُولِ إلَّا الْبَلاغُ الْمُبِيْن"... كما كان لـ(ألا) الاستفتاحيَّة التنبيهيَّة مقرونةً بـ(الواو مع إنَّ التأكيديَّة وقد التحقيقيَّة) دورها ووقعها في زيادة تأثير الجمل الخبريَّة؛ "أَلا إنَّهُمْ أُمَناءُ اللهِ في خَلْقِهِ وَحُكّامُهُ في أَرْضِهِ. أَلا وَقَدْ أَدَّيْتُ، أَلا وَقَدْ بَلَّغْتُ، أَلا وَقَدْ أَسْمَعْتُ، أَلا وَقَدْ أَوْضَحْتُ. ألا وَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قالَ، وَأَنَا قُلْتُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. أَلا إنَّهُ لا "أَميرَ الْمُؤْمِنينَ" غَيْرَ أَخي هذا. أَلا لا تَحِلُّ إمْرَةُ الْمُؤْمِنينَ بَعْدي لأَحَدٍ غَيْرِهِ"[٣٧].. كما كان للتكرار إيقاعٌ يزيد

٣٥ الأنصاري، ٣٦، ٣٧.
٣٦ الأنصاري، ٤٥.
٣٧ الأنصاري، ٤١.

من تأثير الكلمة في النفوس، وقد برز ذلك في ترديد النبيّ لعبارة "معاشر الناس"، و"مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ، مَغْضُوبٌ مَغْضُوبٌ"[٣٨] واستعمال (ألا) بشكلٍ متتالٍ، وغيرها...

لقد استثمر النبيّ ﷺ في هذه الفقرات من الخطبة عواطف المسلمين نحوه وتعلّقهم به، ليكون لكلماته تأثيرٌ وجدانيٌّ أكبر: "إِنَّهُ آخِرُ مَقام أَقُومُهُ في هذَا الْمَشْهَد"، كما استثمر إيمانهم بما جاء من عند الله في كتابه، فكان في تبيانه لصفاتٍ الإمام عليٍّ عليه السلام وخصائصه يربطه بنفسه تارةً وبالآيات أخرى؛ "فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ مَوْلاكُمْ وَإِلهُكُمْ، ثُمَّ مِنْ دُونِهِ رَسُولُهُ وَنَبِيُّهُ الْمُخاطِبُ لَكُمْ، ثُمَّ مِنْ بَعْدي عَلِيٌّ وَلِيُّكُمْ وَإِمامُكُمْ بِأَمْرِ اللهِ رَبِّكُمْ، ثُمَّ الإِمامَةُ في ذُرِّيَّتي مِنْ وُلْدِهِ إِلى يَوْم تَلْقَوْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ... هذا عَلِيٌّ أَخي وَوَصِيّي وَواعي عِلْمي، وخَليفَتي في أُمَّتي عَلى مَنْ آمَنَ بي وَعَلى تَفْسيرِ كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وَالدّاعي إِلَيْهِ"[٣٩]، كما كان تذكيره بالعقاب والثواب بارزًا، ولعلَّ التذكير بالعقاب كان أبرز، إذ إنَّ النبيَّ كان يتوقّع المخالفة من المنافقين، كما ذكر في الخطبة، وكان خطابه في كثيرٍ من المواضع تهويليًّا لكلِّ من تسوّل له نفسه الإنكار، وتضليل الآخرين أيضًا، فكان ذاك الخطاب بهذه اللهجة الشديدة لأجل بيان عظمة الأمر وعظمة مخالفته أيضًا: "إِنَّهُ إِمامٌ مِنَ اللهِ، وَلَنْ يَتُوبَ اللهُ عَلى أَحَد أَنْكَرَ وِلايَتَهُ وَلَنْ يَغْفِرَ لَهُ، حَتْماً عَلَى اللهِ أَنْ يَفْعَلَ ذلِكَ بِمَنْ خالَفَ أَمْرَهُ وَأَنْ يُعَذِّبَهُ عَذاباً نُكْراً أَبَدَ الآبادِ وَدَهْرَ الدُّهُورِ. فَاحْذَرُوا أَنْ تُخالِفُوهُ، فَتَصْلُوا ناراً وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ... إِنَّما أَكْمَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دينَكُمْ بِإِمامَتِهِ. فَمَنْ لَمْ يَأْتَمَّ بِهِ وَبِمَنْ يَقُومُ مَقامَهُ مِنْ وُلْدي مِنْ صُلْبِهِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَالْعَرْضِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأُولئِكَ الَّذينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ وَفِي النّارِ هُمْ خالِدُونَ"[٤٠].

إنَّ النبيَّ ﷺ قد ارتكز في إطلاقه لتلك المؤثّرات الوجدانيَّة على معرفته بواقع المسلمين في عصره، ورصده أيضًا لواقعٍ أفضل لهم في العصور اللاحقة، ولذا فإنَّه في خطبته التبليغيَّة التي قرن فيها الحجَّة والدليل بالتفاعل الوجدانيّ، صرّح لجمهور المسلمين صراحةً بأمرين، أوَّلهما معرفته بمن سينكر الولاية معرفةً تعيينيَّة، أي أنَّه يعرفهم بأشخاصهم وأسمائهم ولكنَّه

٣٨ الأنصاري، ٣٩.
٣٩ الأنصاري، ٤٢.
٤٠ الأنصاري، ٤٣.

قد عفا عنهم بأمر الله، "أَعْرِفُهُمْ بِأَسْمائِهِمْ وَأَنْسابِهِمْ، وَقَدْ أُمِرْتُ بِالصَّفْحِ عَنْهُمْ"[٤١]، وفي ذلك حكمةٌ لا يعلمها إلّا الله، وثانيهما أنَّ قبول المسلمين بولاية أمير المؤمنين، بعد ما سمعوه منه من بيانٍ وبرهان، مقرونٌ حتمًا بعاطفتهم نحوه، فإن كانوا يحبّونه فسيقبلون، وإن كانوا يبغضونه فسيرفضون، حتّى وإن كانوا بولايته مقتنعين: "فَلْيَعْمَلْ كُلُّ امْرِئٍ عَلى ما يَجِدُ لِعَلِيٍّ في قَلْبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ"[٤٢].

الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة:

-**التحذير من المنافقين**: تبدأ من (معاشر الناس، لا تمنّوا عليّ بإسلامكم) وتنتهي عند (أمر الصحيفة).

-**الدعوة لأخذ العبرة من الأمم الماضية، والتشديد على الالتزام بالأمر الإلهيّ في الإمامة**: تبدأ من (معاشر الناس، قد ضلّ قبلكم أكثر الأوَّلين) وتنتهي عند (زخرف القول غرورًا).

-**المقارنة والمقابلة بين أولياء أهل البيت وأعدائهم**: تبدأ من (ألا إنَّ أولياءهم) وتنتهي عند (مدحه الله وأحبّه).

من العناصر التي تؤدّي إلى تفاعلٍ وجدانيٍّ بين الخطيب والجمهور، أن يكون الخطاب مباشرًا، وأن تكون أفعال الأمر مسيطرة، كما مرَّ في الفقرات السابقة، وأن يكون للنهي مقام الصدارة، فالنهي أشدّ وقعًا في النفس من الأمر، لأنَّه يحذّر بينما الأمر يطلب، والتحذير من الخطر يسبق العمل بما تتوفّر فيه السلامة، وإن كان كلاهما مؤثّران، وقد برز النهي ثُمَّ الأمر في مطلع الكلام هنا، وجاء الأمر طلبيًّا، حيث يقول النبيّ ﷺ: لا تَمُنُّوا عَلَيَّ بِإِسْلامِكُمْ، بَلْ لا تَمُنُّوا عَلَى اللهِ... فَاسْمَعُوا لأَمْرِهِ تَسْلِمُوا وَأَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَانْتَهُوا لِنَهْيِهِ تَرْشُدُوا، وَصِيرُوا إلى مُرادِهِ وَلا تَتَفَرَّقْ بِكُمُ السُّبُلُ عَنْ سَبِيلِهِ."[٤٣]

ولم تغبْ (ألا الاستفتاحيَّة التنبيهيَّة) أيضًا عن هذه الفقرات، فقد كان لها دورها في العرض والتأثير والتشديد على أهمِّيَّة الأمر المطروح، و"جذب انتباه القارئ"[٤٤]، مع ما في هذا الجذب

٤١ الأنصاري، ٤٦.
٤٢ الأنصاري، ٤٦.
٤٣ الأنصاري، ٥٠.
٤٤ الحمد، علي توفيق و الزعبي، يوسف جميل، المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، د.ت.٥٣.

من تأثير وجدانيّ فيه، كما أتى استخدامها في معرض المقابلة والمقارنة، بين المؤمنين والمنافقين، حيث يقوم النبيّ بعرض مصير كلٍّ منهم وعاقبة عمله عند الله، في إطار الترغيب بعمل المؤمنين والتحذير من عاقبة المنافقين: "أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ. أَلا إِنَّ أَعْداءَهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ الْغاوُونَ"؛ هكذا يُعَنْوِنُ النبيُّ المؤمنين والمنافقين ويصنّفهم، ثُمَّ ينثني إلى أوصافهم فيبيّنها: "أَلا إِنَّ أَوْلِياءَهُمُ الَّذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ في كِتابِهِ... أَلا إِنَّ أَوْلِياءَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذينَ وَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ... أَلا إِنَّ أَوْلِياءَهُمُ الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرْتابُوا. أَلا إِنَّ أَوْلِياءَهُمُ الَّذينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلامٍ آمِنينَ... أَلا إِنَّ أَعْداءَهُمُ الَّذينَ يَصْلَوْنَ سَعيراً. أَلا إِنَّ أَعْداءَهُمُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ لِجَهَنَّمَ شَهيقاً وَهِيَ تَفُورُ وَيَرَوْنَ لَها زَفيراً... أَلا إِنَّ أَوْلِياءَهُمُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبيرٌ"[٤٥]، ويبقى الترهيب ملك الموقف والترغيب وزيره، ولا عجب فالمسلمون آنئذٍ بين مطرقة العقل وسندان القلب، ومع أنَّ الترغيب محبّبٌ للنفس إلّا أنَّ الترهيب أبلغ في الصدّ عن المعاصي، وهذا ما كان النبيّ عارفًا به مشتغلًا عليه، إذ يختم المقارنة بين جزاء المنافقين وثواب المؤمنين فيقول: "مَعاشِرَ النّاسِ، شَتّانَ ما بَيْنَ السَّعيرِ وَالأَجْرِ الْكَبيرِ. مَعاشِرَ النّاسِ، عَدُوُّنا مَنْ ذَمَّهُ اللهُ وَلَعَنَهُ، وَوَلِيُّنا كُلُّ مَنْ مَدَحَهُ اللهُ وَأَحَبَّهُ"[٤٦].

الفقرات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة:

-**التأكيد على ضرورة البيعة بالمصافحة بعد الخطبة**: تبدأ من (معاشر الناس، إنِّي قد بيّنت لكم) وتنتهي عند (فسيؤتيه أجرًا عظيمًا).

-**التذكير بالفرائض(الحج) وأوامر الله ونواهيه (الحلال والحرام) ودور الإمام عليّ عليه السلام في إكمال الدين**: تبدأ من (معاشر الناس، إنَّ الحجَّ والعمرة) وتنتهي عند (في الجنان نصيب).

-**الأمر بالإقرار بالبيعة من خلال النصّ**: تبدأ من (معاشر الناس، إنَّكم أكثر من أن تصافقوني) وتنتهي عند (ربِّ العالمين).

بعدما بيّن النبيُّ صلى الله عليه وآله للناس ما اختلفوا فيه، وبعدما أوضح لهم ما أمر الله في الإمام عليّ عليه السلام، وقد نصّبه عليهم خليفةً له وإمامًا، كان من الطبيعيّ أن يوثّق ذلك بأخذ البيعة له، ولذا فقد

٤٥ الأنصاري، خطبة الغدير النصّ الكامل،٥٢،٥٣

٤٦ الأنصاري، ٥٤.

سيطر على أجواء الفقرات الأخيرة من الخطبة عنصر السرد، والنصح والإرشاد استكمالًا لما قيل سابقًا، وتبيانًا لأحكام الله التي يريد النبيّ ﷺ أن يقرّها في المسلمين بإقراره عليًّا خليفةً وإمامًا.

على أنَّ الموقف موقف تبليغ، وهو موقف توديعٍ أيضًا، والنبيّ ﷺ يعلم أنَّها آخر مرّةٍ يواجه فيها هذا الكمَّ الهائل من البشر، القادمين من أقطار الأرض والعائدين إليها بعد الفراغ من مراسم الحجّ، لم تستوقفهم في ذلك المكان إلّا دعوته لهم للاجتماع وسماع تبليغه، ولذا فإنَّه من الطبيعيّ أن يعمل النبيّ ﷺ على إجمال رسالته واختصارها في كلماتٍ تستطيع احتواءها، وتقديمها للمسلمين بشكلها النهائيّ الذي يضمن لهم رضا الله ورحمته ورضوانه، ومن هنا فإنَّنا نلحظ تذكيرًا بالكثير من الأحكام والواجبات والمستحبَّات، من عمرةٍ وحجٍّ وصلاةٍ وزكاة، وحلالٍ وحرامٍ وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، ولكنَّه يربط كلَّ ذلك بالإقرار بإمامة الإمام عليّ عليه السلام، وذلك لتوثيق العلاقة العقائديَّة فكريًّا ووجدانيًّا به، فبعد التأكيد على أمر الحجّ وما يتوجّب على المؤمن من توبةٍ وإقلاعٍ عن المعاصي وتفقّهٍ في الدين، يزيدهم بقوله: "فَإِنْ طَالَ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَقَصَّرْتُمْ أَوْ نَسِيتُمْ فَعَلِيٌّ وَلِيُّكُمْ وَمُبَيِّنٌ لَكُمْ"[٤٧]، وفي معرض الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجده يقول: "وَلا أَمْرَ بِمَعْرُوف وَلا نَهْيَ عَنْ مُنْكَر إِلّا مَعَ إمام مَعْصُوم"... وهكذا... كلُّ ذلك لكي ترتبط في ذهن المؤمن وقلبه عقيدة التوحيد بالنبوّة والإمامة معًا، فيكون المؤمن متعلّقًا بذلك الأمر الإلهيّ كما هو متعلّقٌ بعقيدته ونبيّه الكريم.

ولنا أن ندرك ما عاشه المؤمنون في تلك اللحظات من مشاعر متناقضة متداخلة، من حزنٍ وأسى للهجة التوديع التي عبقت بها كلمات نبيّهم العظيم، وسرورٍ ورضى بما أنعم به الله عليهم من تنصيب خليفةٍ له يقوم مقامه، فيأخذ بيدهم ويرشدهم سواء السبيل، أمَّا المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمبغضون لعليّ عليه السلام، فقد عاشوا بلا ريب مشاعر الغضب والنفور والنقمة لهذا التنصيب القسريّ الذي سيجعلهم يتلبّسون الإيمان بالله ورسوله مدى حياتهم، ولعلَّهم كانوا يظنُّون أنَّهم سيتخلّصون منه حالما يتوفّى النبيّ فيقتسمون إرثه... أو لعلَّهم سيفرغون الدين من جوهره ويمارسونه كما يحلو لهم لا كما أمرهم الله ورسوله...

أيًّا يكن الأمر، فالنبيّ ﷺ قد انطلق يسرد ويوضّح وينبّه مجدّدًا إلى دور الإمام عليّ عليه السلام في حياة

٤٧ الأنصاري، ٥٨.

المؤمنين بعده، وقدّم لذلك كلّه بعبارةٍ واحدة: "مَعاشِرَ النّاسِ، إنِّي قَدْ بَيَّنْتُ لَكُمْ وَأَفْهَمْتُكُمْ، وَهذا عَلِيٌّ يُفْهِمُكُمْ بَعْدي"[٤٨]، ولذا فهو يطلب منهم مبايعته بالمصافقة، ليكون فعلهم وقولهم متّفقان على صعيدٍ واحد، وهذا الطلب متوافقٌ مع التبليغ الذي أقنعهم به، وبالتالي فهو تتمّةٌ له، ولم يكن ليحول بينهم وبينه إلّا وجود مشاعر سلبيَّة تجاهه، ولذا فقد كان لا بدّ من التأكيد على كلِّ ما سلف، لرفع وتيرة المشاعر الإيجابيَّة، وها هو النبيّ يستعمل أساليب الإرشاد في سرده للأحكام والأوامر الإلهيَّة من جديد، فيحدّثهم عنها بصيغة الأمر والتوكيد، ما بين (إنّ وقد وألا) وغيرها من الصيغ التي سبق لنا إيراد شواهدها في مواضع أخرى من الخطبة، ولا بأس بأن نورد القليل منها في هذا الموضع: " إنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مِنْ شَعائِرِ الله... أَلا إنَّ الْحَلالَ وَالْحَرامَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أُحْصِيَهُما... أَلا وَإنّي أُجَدِّدُ الْقَوْلَ: أَلا فَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاءْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ... أَلا وَإنَّ رَأْسَ الأمْرِ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ تَنْتَهُوا إلى قَوْلي وَتُبَلِّغُوهُ مَنْ لَمْ يَحْضُرْ وَتَأْمُرُوهُ بِقَبُولِهِ عَنّي وَتَنْهَوْهُ عَنْ مُخالَفَتِهِ، فَإنَّهُ أَمْرٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَمِنّي."[٤٩]

وينتهي النبيّ ﷺ بالناس إلى ذروة الفكرة، وقمَّة المشاعر المسيطرة، كلاهما معًا ينتقلان عبر اللغة والبيان، ليصلا إلى أعماق كلِّ إنسان، ويجعل ثمرة خطبته أن يردّد الناس بعده البيعة بنصٍّ محدّد: " فَقُولُوا بِأَجْمَعِكُمْ: "إنّا سامِعُونَ مُطيعُونَ راضُونَ مُنْقادُونَ لِما بَلَّغْتَ عَنْ رَبِّنا وَرَبِّكَ في أَمْرِ إمامِنا عَلِيٍّ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ وَمَنْ وُلِدَ مِنْ صُلْبِهِ مِنَ الأئِمَّةِ. نُبايِعُكَ عَلى ذلِكَ بِقُلُوبِنا وَأَنْفُسِنا وَأَلْسِنَتِنا وَأَيْدينا. عَلى ذلِكَ نَحْيى وَعَلَيْهِ نَمُوتُ وَعَلَيْهِ نُبْعَثُ..."[٥٠]، والصيغة الخبريَّة التقريريَّة بصيغة المتكلّمين التي يمليها النبيّ على الناس تجعلهم يحقّقون البيعة بالشروط التي ذكرها، وتؤكّد عليهم الحجَّة في التبليغ الذي أوكِل إليه من قبل الله عزَّ وجلَّ...

ونلحظ هنا عبارة (بقلوبنا وأنفسنا وألسنتنا وأيدينا)... إنَّها الشاهد القاطع على إستراتيجيَّة الإقناع في الخطبة، والتي توجّهت إلى الإنسان ككل، قلبًا ونفسًا ولسانًا ويدًا، والقلب عند العرب عمومًا هو باطن الإنسان وهو العقل، كمثل قول ابن عبَّاسٍ لما سئل عن علمه كيف

٤٨ الأنصاري، ٥٦.
٤٩ الأنصاري، ٥٩.
٥٠ الأنصاري، ٦١.

أصابه، فأجاب: "بلسان سؤول وقلب عقول"[٥١]، فقد مزجت الخطبة بين الفكر والعاطفة في سياقٍ واحدٍ كان هذا البحث مجال إثباته.

ثُمَّ إنَّ النبيَّ ﷺ يطرح استفهامًا إنكاريًّا: "معاشر الناس، ما تقولون؟... ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾، وَمَنْ بايَعَ فَإِنَّما يُبايِعُ اللهَ، ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْديهِمْ﴾"[٥٢]... وفي هذا الاستفهام دلالةٌ على خلاصة الخطبة، وهي إثبات الحجَّة العقليَّة والوجدانيَّة على المسلمين، وهو ما رمى إليه النبيّ من خلال خطبته كنتيجةٍ لتبليغه الشريف.

ويختم النبيّ ﷺ خطبته بقولٍ ليّن، تلين به قلوب المؤمنين، مستخدمًا أسلوب الشرط الجازم المربوط بـ(قد) في جوابه، ليفيد التحقيق والتأكيد والتشديد، محفّزًا إيَّاهم لتنفيذ الأمر بترغيبهم بالفوز الأبدي، "مَعاشِرَ النّاسِ، مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَعَلِيّاً وَالأئِمَّةَ الَّذينَ ذَكَرْتُهُمْ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً. مَعاشِرَ النّاسِ، السّابِقُونَ إلى مُبايَعَتِهِ وَمُوالاتِهِ وَالتَّسْليمِ عَلَيْهِ بِإمْرَةِ الْمُؤْمِنينَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ في جَنّاتِ النَّعيمِ". يتبعه الأمر مع الشرط الجازم في شاهدٍ قرآنيّ مجيد: "مَعاشِرَ النّاسِ، قُولُوا ما يَرْضَى اللهُ بِهِ عَنْكُمْ مِنَ الْقَوْلِ، ﴿فَإِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَميعاً فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً﴾".[٥٣] ويأتي الدعاء للمؤمنين والسخط على الجاحدين في نهاية الخطبة ليكون ختام التبليغ، وهل يريد النبيّ إلّا الخير لأمَّته في اتّباع الحقّ: "اللّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنينَ بِما أَدَّيْتُ وَأَمَرْتُ وَاغْضِبْ عَلَى الْجاحِدينَ الْكافِرينَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمينَ"[٥٤].

خلاصة المبحث الثاني:

إنَّ النبيّ ﷺ قد استطاع أن يمزج في خطبته هذه بين الدليل العقليّ والتأثير الوجدانيّ، وقد تتبّعنا في هذا المبحث بعض شواهد هذا التأثير التي مضت مواكبةً سير الخطبة فلم تخلُ منه أيَّ فقرةٍ منها، فحتَّى التدرّج المنطقيّ يخلق شعورًا بالرضا في نفس المتلقّي حين وصوله إلى النتائج المقنعة التي تريح ضميره، وكان الاشتغال على التأثير العاطفيّ بارزًا في الخطبة بشكلٍ منفردٍ أحيانًا، ومتداخلٍ مع إلقاء الحجج والبراهين في أحيانٍ أخرى، وقد رصدنا معالمه في هذا

٥١ بن حنبل، أحمد. فضائل الصحابة، ج٢، د.ت. ٩٧٠.
٥٢ الأنصاري، خطبة الغدير النصّ الكامل، ٦٢.
٥٣ الأنصاري، ٦٤.
٥٤ الأنصاري، ٦٤.

المبحث، من خلال الشواهد اللفظية والمعنوية، وثبت لنا أنَّ هذا التأثير كان من عوامل نجاح عمليَّة الإقناع، فضلًا عن قوَّة الدليل، وكان الوصول إلى ثمرة التبليغ، عمليَّة المبايعة للإمام عليّ عليه السلام، وصولًا أيضًا إلى قمَّة التأثير الحاصل في نفوس وعقول وقلوب المستمعين للخطبة الشريفة.

الخاتمة:

إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وميّزه عن سائر المخلوقات بالعقل والقلب، ولذا فإنَّه يحاسبه عليهما، ويأخذه بهما، ومعلومٌ أنَّ القلب قد ينقاد للهوى، فيَضِلَّ أو يهتدي، أمَّا العقل فلا ينقاد إلّا للمنطق السليم، وكان الأنبياء هم المرشدون الأوّلون الذين أخذوا بأيدي البشر وعقولهم وقلوبهم إلى سبل الهداية والصلاح، وحريٌّ بالنبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله أن يكون هو المرشد الأكبر للبشريَّة جمعاء، وكيف لا يكون وهو الأكمل خَلقًا وخُلقًا وقلبًا وعقلًا ومنطقًا، لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحيٌ يوحى، برّأه الله أسوةٌ للعالمين، فكان في كلِّ حياته مصداقًا للكمال الإنسانيّ، يقدّم للبشر المثال الأرفع ويوجّههم نحو الصراط المستقيم، وما كانت خطبته فيهم يوم الغدير إلّا خلاصة تلك الحياة النبيلة المعطاء، حيث ختم تبليغه للرسالة السماويَّة الأشمل بخير ختام، وكان في حديثه للأنام مواكبًا ومراعيًا لطبيعة الإنسان، يخاطب عقله وقلبه معًا، منطلقًا به من أولويّات إيمانه وتعلّقه بالله ورسوله، ومتدرّجًا فيها بشكلٍ منطقيٍّ متكامل ووجدانيٍّ متفاعل، بدءًا بالإيمان بالله ثُمَّ برسوله الأعظم، مرورًا بما يستوجبه الإيمان من طاعةٍ للخالق والتزامٍ بأوامره وتجنّبٍ لنواهيه، وحرصٍ على رضاه وحبٍّ لمن يرضاه، وصولًا إلى الانصياع لأمره في ولاية أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، الذي تشكّل إمامته الامتداد الطبيعيّ لنبوَّة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، وتتلوها إمامة الأئمة من أولاده...

لقد استطاع النبيّ صلى الله عليه وآله في خطبة الغدير، وهي المنعطف العقائدي والإنساني الخطير الذي اجتمعت في كنفه رسالة الإسلام برمّتها لتنضوي تحت جنح الوصيّ بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، إذ استطاع أن يستقطب اهتمام جمهور المسلمين، وأن يجتذب قلوبهم، وأن يلقي الحجَّة الكاملة عليهم بأسلوب إقناعيّ فذٍّ، يتوسّل التدرّج المنطقيّ في عرض الأسباب والنتائج، ويخاطب القلوب بإثارة عواطفها الكامنة من حبٍّ وتعلّقٍ به، وخوفٍ من غضب الله ورغبةٍ في رضاه، حتَّى حصد

ثمرة ذاك التبليغ بمبايعتهم للإمام، بالقول والمصافقة، وكانت خطبته حجَّةً على الخلق أجمعين، لا في زمانه فحسب، بل في كلِّ زمانٍ بعده، والشاهد أنَّها ما تزال تُناقش وتُدرّس وتُحلّل حتَّى يومنا هذا... وقد استطعنا في هذا البحث أن نبيّن مقوّمات التدرّج المنطقيّ الذي اعتمده النبيّ في خطبته لإقناع الناس بحجّته، جنبًا إلى جنبٍ مع مقوّمات التأثير العاطفيّ والوجدانيّ الذي خاطب به أفئدة الجمهور، وذلك من خلال تتبّع دلالات الألفاظ والعبارات التي استعملها في خطبته، فانطلقنا من اللفظ لنصل إلى الفكرة، ومن المبنى لنصل إلى المعنى، وأوردنا الشواهد من بعض أنحاء الخطبة التي تمّ تقسيمها إلى فقراتٍ تتناسب مع إشكاليَّة الدراسة. وأثبتنا في النهاية أنَّ النبيَّ باستعماله إستراتيجيَّة الإقناع التي يتمازج فيها المنطق العقليّ مع التأثير الوجدانيّ، استطاع أن يوصل فكرته كاملةً غير منقوصة، وأن يبلّغ رسالته خير تبليغ، بعدما راعى في أدائه الخطابيّ وكلامه المدروس طبيعة الإنسان ككلّ، فلم يأخذ جانب العقل مهملًا جانب العاطفة، ولا هو خاطب القلب مهملًا المنطق، بل ألّف في خطبته بينهما، تمامًا كما علّمه الباري جلَّ وعلا، فكانت خطبته نموذجًا يحتذي خطى القرآن في منهجيَّته.

إنَّ هذا البحث قد توصّل إلى إثبات ذلك التمازج الفريد الحاصل بين المنطق العقليّ والتأثير العاطفيّ في عملية التبليغ الإلهيّ بخطبة الغدير، والذي نجح من خلاله النبيّ في تبليغ رسالته العصماء، ومن هنا يمكننا أن نسأل: كيف تنطبق إستراتيجيَّة الإقناع بشقّيها العقليّ والعاطفيّ على أحاديث النبيّ ﷺ عمومًا والأئمة المعصومين ﷺ؟ وإلى أيّ مدىً يمكننا الاستدلال من هذه الإستراتيجيَّة المتكاملة على شمولية التبليغ المُحَمَّديّ ومخاطبته للإنسان في كلّ زمانٍ ومكان؟ إنَّ الإجابة عن هذه الأسئلة تُترك معالجتها لباحثين آخرين، سائلين الله عزَّ وجلَّ أن يسدّد خطانا جميعًا على درب الحقّ والهدى، عسانا نتمكّن من أن ندخل إلى عالم الحقائق الإلهيَّة الزاخر بالأسرار، لنقتبس منها ما نستنير به وننشره في فضاء الإنسانيَّة المتعطّش لتلك الأنوار.

المصادر :

القرآن الكريم

ابن الجوزي، سبط. تذكرة الخواص، د.ت.

الأنصاري، محمد باقر. خطبة الغدير النصّ الكامل، د.ت.

الحلبي، علي بن برهان الدين. السيرة الحلبية. ج٣.، د.ت.

الحمد، علي توفيق، و يوسف جميل الزعبي. المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، د.ت.

الداية، فايز. علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق. ط٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦.

الرضي، مُحَمَّد بن الحسن النجفي. شرح الرضي لكافيّة ابن الحاجب. ج٢.، د.ت.

القيقط، سلاف. "أساليب الإقناع وتأثيراتها الإيجابية من خلال الأحاديث النبوية." المنصّة الجزائرية للمجلات العلمية المجلد ١٦ (د.ت.).

الكُليني، أبي جعفر مُحَمَّد بن يعقوب بن إسحاق. الكافي. طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥.

المقريزي. إمتاع الأسماع، د.ت.

بن حنبل، أحمد. فضائل الصحابة. ج٢.، د.ت.

عبد العزيز، شريف. "سمات الأسلوب الخطابي الناجح." khutabaa.com، ٢٠١٨.

عمر، أحمد مختار. علم الدلالة. القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٣.

محمد، إسماعيل علي. فن الخطابة ومهارات الخطيب. ط٥. القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، د.ت.